القدّاس

للكردينال فون رئيس أساقفة و ستمنستر

يليه

الفرح والسلام

للأب فوش اليسوعي

نقلهما الى العربية

الأب ج. عقيقي اليسوعي

منشورات المعهد

المعادى

تقدمة

الى أبناء أبرشيتي

قدّمت لكم العام الماضي كتيباً في حب آلام يسوع المسيح. وأدعوكم هذا العام، بعاطفة الحب نفسها، تقديساً لنفوسكم، أن تطالعوا هذه الصفحات في ذبيحة القداس.

ان هذين الموضوعين : موت الرب والقداس، هما شيء واحد، لأن ذبيحة الصليب وذبيحة المذبح واحدة من حيث المقرب الالهي والضحية المقربة.

يقول القديس توما واللاهوتيون، فيما يخص مجد الله: ان قداساً واحداً يؤدي للثالوث الأقدس إكراماً أعظم من إكرام جميع الملائكة وقديسي السماء كافة. ويقول القديس بونافنتور فيما يختص بتقديس النفوس : ان الله يمنح العالم من المواهب في كل قداس ما منحه إياه عند التجسد.

فيكفي أن نفتكر في هذه الأمور، حتى نبكي دماً – والقديسون أنفسهم لو قدروا لبكوا مثلنا – عند رؤية ما يخسره البشر كل يوم، بجهلهم قيمة القداس. وكم بين الكاثوليك أنفسهم من الباردين والفاترين، لأنهم ما حاولوا قط أن يكوّنوا لهم فكرة صحيحة في الذبيحة الالهية، ولا خطر ببالهم أن القداس هو العمل العظيم. العمل المركزي لعبادة الله على الأرض، فهو يجمع الخلق جميعاً في عاطفة سجود وشكر لا حد لقيمتها، ويُجرى من الجلجلة على جميع المشتركين به بإيمان وعبادة فيوضاً من الخيرات لا تحصى. فهناك غفران الخطايا، وترك العقوبات الزمنية المرتبة عليها، وزيادة النعم الروحية وكل نوع من البركات الروحية والزمنية.

كتبت هذه الصفحات من أجلكم، يا أبنائي الأعزاء، لكي أعاونكم على اكتساب فكرة سامية وصحيحة في ذبيحة القداس المقدسة. فاستعينوا بكل ما يمكنكم من الوسائل لتلهموا من حولكم احتراماً عظيماً للقداس، وحبًّا قلبيًّا. كونوا رسلاً للقداس بين أصدقائكم.

ليس هذا الكتاب الصغير كتاب مناظرة ومجادلة، إنما هو كتاب تقوى وعبادة لاستعمال أناس مسيحيين. ولكن، لا تكون التقوى دائمة ومتينة، وغير عابرة، إلا اذا اعتمدت على العلم والمعرفة، ولذلك اجتهدت في الصفحات التي تطالعونها أن أضع تحت نظركم، بعبارة بسيطة، تعليم آباء الكنيسة وعظماء اللاهوتيين من القديس توما الأكويني، وسواريز، ولسيوس، والكرادلة لوغو، وبونا، وفرتزلين.

عسى الله يمنحكم النعمة حتى تقدروا القداس الالهي حق قدره. وتحضروه غالباً كلما قدرتم.

ان من يحضر القداس كل يوم يموت ميتة صالحة.

خادمكم أبوكم المخلص

هربرت أسقف سلفورد

ذبيحة القداس المقدسة

الفصل الأول

ذبيحة القداس هي فعل لا صورة صلاة بسيطة

1 ان ذبيحة القداس هي أسمى فعل الهي احتفالي في الديانة المسيحية، وأعظم ما يمكن أن يتم على الأرض من الأفعال. وما هو بأقل من تقدمة يسوع نفسه ضحية لله من أجلنا نحن البشر.

القداس فعل، لا صورة صلاة بسيطة، فهو يختلف جوهرياً عن صور العبادات الأخرى جميعها : كصلوات الصباح والمساء، وصلاة الوردية وغيرها.

2 جلّ غايتي من هذا الكتيب الاهتمام بالجوهر، وبروح هذا الفعل : فعل العبادة العظيم، وبيان فوائد ذبيحة القداس، وطريقة حضورها. أما الأمور الخارجية كالشموع والطقوس، فإن هي إلا كالملابس في بلاط الملوك، لا يقوم بها حضور الملك ولا حياته ولا شخصه.

3 الذبيحة تقوم بتقديم ضحية، ذبحاً، أو إفناء، أو بتغيير ما يعدّ موازياً لذلك. وغاية هذه الذبيحة الاعتراف بسلطان الله السامي على جميع الخلائق، والاعتراف بعلاقتنا المطلقة به.

ويجب أن يكون مقدّم الذبيحة شخصاً معيناً لذلك، شرعاً، ولا يمكن تقديمها إلا لله وحده.

فترى من هذا أن الذبيحة ليست صلاة عادية، بل هي فعل احتفالي مقدس يقوم به كاهن.

ولا بدّ لتتميمه من آلة. فإبرهيم أخذ معه لذبيحته سكيناً وحطباً. وهكذا جميع ذبائح العهد القديم، وذبيحة الصليب لم تكن لتتم إلا ببعض الآلات. أما القداس، فلا يحتاج الى سكين ولا الى نار، ولا الى أية مادية، بل الى بعض كلمات مقدسة عينها المسيح نفسه وهي تقوم مقام السكين. فيقول القديس بولس في رسالته الى العبرانيين (ف 4 : 12) : ((كلمة المسيح أمضى من كل سيف ذي حدين)).

والقديس غريغويوس النزينزي في (رسالته 171) الى كاهن : ((لا تغفل أن تصلى من أجلنا، ولتكن سفيرنا حقًّا، عندما تنزل كلمة الله على المذبح، بكلمة، مستخدماً صوتك كسيف فتفصل (عند التقديس) بضربة غير دموية جسد الرب ودمه)). فليس

في هذا جميعه أية صعوبة على مسيحي يؤمن أن الله بكلمة قد خلق كل شيء، وان كلمته كلمة كلية القدرة.

فحسب الحضور أن يريدوا مشاركة الكاهن بحضورهم الشخصي أمام المذبح، وبإيمانهم بالذبيحة وعبادتهم، دون احتياج الى سماع الكلمات التي يلفظها عند التقديس.

4 ان الكردينال نيومن قد أوضح هذه الأمور جميعها إيضاحاً بديعاً اذ قال : ((ليس القداس صورة من الصور. هو فعل عظيم، بل أعظم ما يمكن أن يتم على الأرض، ولا هو ابتهال الى الله فحسب، بل هو استدعاء للأزلي. فيحضر بجسده ودمه ولاهوته على المذبح من تنحنى الملائكة أمامه. وترتعد الشياطين من ذكره.

((فالكلمات ضرورية، كواسطة لا كغاية، لأنها ليست توسلات موجهة الى عرش النعمة، إنما هي آلات لشيء أعظم، آلات للتقديس، للذبيحة، تمر كما يمر كل شيء سريعاً، وعليها قوام جميع الأجزاء في عمل واحد. تمر سريعاً لأنها كلمات الذبيحة العجيبة، كما يقول الكتاب : ((ما أنت صانعه فاصنعه عاجلاً)). وجميع من يحيطون بالمذبح، وكل واحد في مكانه، يستعدون للحدث العظيم ((منتظرين اضطراب الماء)). كلنا في محلنا، بقلوبنا، وأفكارنا، واحتياجاتنا، ونياتنا، وصلواتنا، منفردين، غير أننا متحدون، ومنتبهون الى عرض الذبيحة، ومتحدون في تتميمها، فنأخذ نصيبنا فيما يصنع كاهن الرب، ونرافقه – لا بجهد وتعب – بل مثل موسيقيين يتفقون وان اختلفت آلاتهم، ويؤدون لحناً واحداً رخيماً)).

الفصل الثاني

كهنوت يسوع المسيح

1 القداس، كما مرّ، هو أكثر من صلاة بسيطة، انه فعل غير متناه عظمة وأبهة، هو فعل الذبيحة.

لنبحث الآن عمن يقوم حقًّا بهذا الفعل المقدس، من هو الكاهن مقدم الذبيحة؟ فإن قلتم : ((هو الآب فلأن الذي نعرفه ونألفه)) – قلت لكم : إنكم مخطئون كل الخطأ، وإنكم تجهلون مقدم الذبيحة الأكبر.

فمن الإيمان أن مقدّم القداس الأول، والكاهن الأعظم، هو يسوع المسيح. ولكي تفهموا هذه الحقيقة، ها إني أشرح لكم كهنوت يسوع المسيح، فيسهل عليكم بعد ذلك أن تفهموا حضوره ككاهن أعظم في القداس.

2 الكاهن، في اعتقاد البشر عامة، شخص منتدب للقيام بين الله وبين الشعب. فعليه لذلك نوعان من الواجبات : بعضها نحو الله. والأخرى نحو البشر. وهو، في كل ما يتعلق بوظيفته، وسيط بين الإنسان وبين الله.

هو، أولاً، مندوب لكي يقدّم لله هذا الفعل السامي، فعل العبادة، خارجياً وعموميا، وهو يقوم بالذبيحة التي لا تحق إلا لله وحده. فعلى جميع الناس أن يقدموا لله واجبات السجود، والشكر، والاستغفار، والتوسل. وهذه هي غايات الذبيحة الأربع.

وعلى الكاهن، فوق ذلك، واجبات إيجابية نحو البشر : أن يعلمهم كل ما يمسّ خدمة الله وخلاص نفوسهم، وأن يقدسهم، ويساعدهم بحسب طبيعة كهنوته، وبما قبله من الله لهذه الغاية.

فينتج من ذلك ان كل ما يتصل بعبادة الله وبخلاص النفوس يختص بالكهنوت، ولكن العالم في كبريائه يثور على هذه الحقيقة، ويسخر بالسلطة الكهنوتية ويحتج على كل وسيط بينه وبين الله. ويظهر أنه يجعل ان لله الحق – لا للإنسان – أن يقطع في هذه المسألة.

أفلا نرى أن الجماعات البشرية، تنتخب لها دائماً، في شئونها السياسية والوطنية، ممثلين عنها، يعملون باسمها، فيكونون كوسطاء بين الشعب وبين السلطان؟ ففي هذه المقابلة بين الطبيعة والنعمة ما يخزى روح الثورة في الإنسان.

3 لقد كان للبشر منذ البدء كهنة يقدمون باسمهم ذبائح، ويعلمونهم شريعة الله. كان هناك كهنة، عهد الشريعة الطبيعية، وعهد العالم، حصر في شخصه وظيفة الكهنوت كلها. ولن يعرف الله منذ مجيئه الى نهاية الدهور كهنوتاً آخر، ولا ذبيحة أخرى. ولا تعليماً آخر غير كهنوت يسوع المسيح وتعليمه.

وان من الإيمان أن الرب يسوع هو كاهن بملء المعنى الحرفي لهذه الكلمة. وتحديد القديس بولس للكهنوت في رسالته الى العبرانيين يتحقق تماما بشخص المسيح : ((ان كل حبر متخذ من الناس يقام لأجل الناس، فيما هو لله ليقرب تقادم وذبائح عن الخطايا)) (عبرانيين 5 : 1)....

ان معلمنا الالهي، وان كان حائزاً على الطبيعة الالهية منذ الأزل، لقد اتخذ، في الزمان طبيعة بشرية كاملة. ((اتخذها من بيئة بشرية)) لأنه قد ولد من المرأة. فهو ابن الطوباوية مريم العذراء. فكهنوته يعتمد على طبيعته البشرية، لا على طبيعته الالهية، وهو بهذه الطبيعة البشرية المقدسة نفسها قد مارس، ويمارس، وسيمارس الى منتهى الدهر، وظائفه المقدسة.

4 من سام المسيح كاهناً؟ وأين؟ وكيف كرّسه ليكون وسيطاً بين الله والبشر؟ لا شك أن في هذه الأسئلة فائدة جلَّى.

ما من يد استقرت على رأس المسيح قط، ولا مسحه أحد مسحة أرضية، ولا تمجّد بكونه صار رئيس أحبار. إنما نال كل هذا ممن قال له : ((أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك !))، كما يقول في موضع آخر : ((أنت كاهن الى الأبد على رتبة ملكيصادق)) (عبر 5 : 5).

هو الله نفسه سامه كاهناً، بدون تدخل أي انسان أو ملاك، في ساعة سكون عجيب، عند ما تجسد في حشا البتول المباركة، وقد قالت : ((فليكن)) سكب اللاهوت على طبيعته البشرية ملء السلطة الكهنوتية، وصار بذلك رأساً، وممثلاً وكاهناً لجنس البشر، ليرعاهم، ويعلمهم كل ما يخص الله، ويقدّم للثالوث المعبود، باسم هؤلاء البشر، ولأجل خلاصهم وسعادتهم، ذبيحة تمحو الخطيئة، وتؤدى له تعالى ما يليق بجلاله من أفعال العبادة والشكر والتكفير.

قال القديس كيرلس : ((دُعى المسيح مسيحاً لأن الله أقامه كاهناً، ودعى يسوع لأنه كان مختاراً ليكون لنا مخلصاً)).

5 المسيح يملك، باتجاه ناسوته بالطبيعة الالهية وأقنوم ابن الله، يملك سلطاناً مطلقاً، لا حد له من السلطة والسمو. ومن أجل هذا لا يمكن أن يشاركه أحد بكهنوته، فقد أوحى تعليمه حينما شاء وكيفما شاء، ونظّم الكنيسة كما شاء، وأذاع شرائعه كما شاء، ورسم أسراراً وموارد نعم كما شاء، وقدم ذبيحة العشاء الأخير وذبيحة الصليب كما شاء، لتؤتى الثمار التي شاء، ومنح الناس من سلطته الكهنوتية بقدر ما شاء. ويقول القديس بولس : كأن كهنوته ((أعلى من السماوات)) (عبرانيين) والقديس يوحنا : ((نحن كلنا أخذنا من امتلائه ونعمة مكان نعمة)). وقال هو عن نفسه : ((لقد أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض)).

الفصل الثالث

يسوع كاهن القداس الأول

1 يسوع هو الكاهن الأول ومقدّم القداس، لا لأنه هو واضع القداس فحسب، ولا لأن قيمة القداس، وقوته ونعمته آتية منه ومتعلقة به وحده، ولكن لأنه وحده كفء لأن يقدمه تقدمة كاملة قاطعة.

فلا بد من أمرين لممارسة وظيفة الكهنوت ممارسة كاملة : أولاً، أن يكون لدى الكاهن سلطة على التضحية، وأن تتم بإرادته. ثانياً، أن يقدم الذبيحة لله، بعد انتدابه شرعياً لذلك.

ويقتضى القيام بالتضحية أو بالتقديس عمل القدرة الالهية. فتلك أعجوبة فوق طاقة أي انسان أو مخلوق. وقد شاء الله أن يتخذ ناسوت الابن الأزلي المقدس آلة لإحداث هذه المعجزة، ((وحسن لديه أن يجعل المسيح بناسوته كاهناً مقرباً للذبيحة الى منتهى الدهر)).

هكذا يكون المسيح الكاهن الأعظم، وان يكن قد تنازل واتخذ الرسل وخلفاءهم كهنة وخداماً. وقد فعل هذا لكي تبقى ذبيحته دائمة منظورة، ((كما تقتضيها الطبيعة البشرية)).

فالمسيح نفسه، كما تعلمنا الكنيسة، يقدم الآن ذبيحته بواسطة الكهنة.

وكلمات التقديس يلفظها الكاهن باسم المسيح، لأنه المضحى الأصلي، لا باسم المضحى الثاني المتصرف كالممثل الرسمي للمسيح.

يقول سواريز : عند ما يلفظ المحتفل بالقداس كلمات التقديس، يفعل ناسوت ربنا المقدس معجزة الاستحالة.

2 ويصرح الآباء بأن المسيح يدعى بكل صواب ((الكاهن الأبدي)) لأنه تعهد تعهداً أبدياً بأن يقدم ذبيحة القداس.

والقديس بولس، في بيانه للعبرانيين ما بين كهنوت العهد القديم وكهنوت العهد الجديد من الفرق، يقول : كان في الشريعة القديمة كهنة كثيرون يقدمون كثيراً من الذبائح، أما

في الشريعة الجديدة، فلا يوجد إلا كاهن واحد وهو : ((كاهن الى الأبد)) لا خلف له، بل له ممثلون. وهذا الكاهن هو المسيح.

لهذا يقول أيضاً : ان إحدى علامات الشريعة الجديدة تقوم بأن المسيح هو نفسه يواصل عمله ككاهن أصلي، وان يكن قد اتخذ له شركاء في كهنوته، وكلاء ثانويين.

وما قام من الاختلاف بين تعدد الكهنة في الشريعة القديمة والكاهن الواحد في الشريعة الجديدة يبين لنا بكل وضوح التعليم المسيحي فيما يتعلق بالقداس، فنفهم منه أن عندنا ذبيحة واحدة وكاهناً واحداً أعظم : يسوع المسيح.

ويعلمنا المجمع التريدنتي (في جلسته 22) أن قيمة ذبيحة المذبح لا يمكن أن تفسد بفساد من يقدمونها أو بعدم كفايتهم. وذلك لأن المسيح لا غيره هو المقدم الأصلي وكاهن القداس.

وقد توقف دائماً قبول الله للذبائح على استحقاق مقدمها الأصلي. ((فقد كره الله)) غالباً في الشريعة القديمة ((ومقت)) ذبائح الكهنة لعدم استحقاقهم. فهذا لن يمكن أن يحدث في الشريعة الجديدة، لأن المسيح هو المقدم الأصلي للذبيحة لا شخص خاطئ.

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم : ((عندما تشاهدون الكاهن يقدم ذبيحة القداس، فلا تنظروا اليه نظرتكم الى المحتفل الحقيقي، بل انظروا الى يد المسيح المرفوعة فوق الهيكل وان تكن غير منظورة)). ويقول القديس أوغسطينوس : ((ان المسيح هو مقدم الذبيحة وهو الذبيحة أيضاً)).

و العالم ((ألكوين)) يردد فيما كتبه في الجيل الثامن صدى المسيحية كلها : ((اني، وان كنت أشاهد بعيني جسدى الكاهن يقدم على مذبح الله خبزاً وخمراً، فإني أرى بعين الإيمان، وبنور النفس الواعية، وبكل تمييز، الكاهن الأعظم والحبر الحقيقي، يسوع المسيح، مقدماً ذاته. فهو ولا شك الكاهن والذبيحة. فذبيحة الفداء ليست، في زمان أو في مكان، منقوصة ولا مزيدة، ولا مقللة، ولا مبدّلة، أكان الكاهن الذي يقدمها قديساً أو غير أهل لها)) (مجموعة مين ص 1887).

3 وفي مجموعة إيحاءات القديسة جرترود خبر رؤيا عجيبة رأت فيها هذه القديسة ربنا يسوع المسيح يحتفل بالقداس.

ويظهر أن الله قد شاء أخيراً أن يقدم برهاناً جلياً على حبه لخياطة طيبة من أبرشية لاروشل، اسمها ماري أوستل هاربن. فقد جمع رسائلها الكردينال ويلكور، ونشرها كما تمنى قبل وفاته. وقد جاء في إحداها : أنها بينما كانت تتأمل في الذبيحة المقدسة أمامها، اذ بها ترى ربنا نفسه محل الكاهن يقدم لله، بمنتهى الجلال، الذبيحة المقدسة، وكانت تلك الذبيحة إياه نفسه.

فصاحت في ذهولها : ((اله يقدم نفسه لإله، يا لها من ذبيحة! لا يقدر ذهني أن يفهم هذه العظمة. وقد كان ذلك، خاصة، وقت التقديس. فامتلأت روحي احتراماً وحبًّا، ورؤية هذا الاله الانسان يقدس جسده ودمه أوعبني فرحاً وسعادة. فبأي شره كنت أتشوق الى تلك اللحظة التي يوافيني فيها حبيب نفسي ويعطيني خبز الملائكة، هو بنفسه يعطيني ذاته! ورأيت روحين سماويين يخدمانه وقت القداس)).

4 لا تخدعك حواسك، لا تظن أن المحتفل الذي تراه وتعرف اسمه، وصوته، وهيئته هو الكاهن الأصيل الذي يقدم الذبيحة. فهناك آخر يراك ولا تراه، ويسمعك، وان كنت لا تسمعه. وهو يقوم بعمل شخصي، وليس وكيلاً ولا آلة للألوهة الجامدة، بل انه يقدم الذبيحة بملء معرفته الانسانية، مستخدماً عقله البشري وإرادته البشرية. ويقدم هذه الذبيحة للثالوث الأقدس، بلا جهد ولا تعب، ومتى فهمت هذه الحقيقة الجوهرية، أن يسوع المسيح على المذبح هو الكاهن الأصيل، زالت الصعوبات كلها وسهل الإيمان.

فميلاد يسوع، وحياته، وموته، وقيامته تثبت أن معجزات حبه أبعد من أن تكون أموراً استثنائية إنما هي شريعة كيانه الجوهرية.

الفصل الرابع

ذبيحة القداس الالهية

1 لو أن أحداً أكّد لك أن يسوع المسيح ينتظرك في مكان كذا، على مسافة كذا من دارك، فبأي سرور، وأمل، ونشاط، كنت تسعى الى لقائه؟! لكنت تنهض، قبل نصف ساعة من موعد نهوضك من النوم، وتتعجل في تناول فطورك، ولا تضيع دقيقة من وقتك، وأنت تحسب ذلك أمراً يسيراً، مقابل مثل هذه السعادة، وان تكون عنده في الساعة المطلوبة.

فكيف لا تمض، كل يوم الى القداس، وأنت تعلم أن يسوع يقدم ذاته كل يوم ضحية عنك. كان واجباً ألا تحسب هذا الانزعاج إلا حرماناً يسيراً.

ان حضوره في القداس كاهناً هو فعل حب عجيب، ولكن هناك لجة حب أعمق : فهو ليس في القداس كاهناً فسب بل هو الذبيحة أيضاً.

يقول القديس أوغسطينوس : ((من هو الكاهن، سوى من دخل قدس الأقداس؟ ومن الكاهن غير الكاهن الأوحد الذي كان ضحية وكاهناً؟ فحين لم يجد في هذا العالم الفسيح شيئاً بالغاً النهاية من الطهارة والنقاوة يقدمه ذبيحة لله، قدم نفسه.

((اللهم! حين لم يكن بين الخلق من يمكنه أن يقدم للجلال الالهي عبادة وافية، ولا كان فيهم من يستطيع ان يرضى عدلك غير المتناهي، عن خطايانا، ولا كانت هناك ضحية تقدر أن تدفع ثمن فدائنا، ليست أنت طبيعة بشرية، وتقدمت بنفسك ضحية عنا.

((لم ترض بالمحرقات ولا بذبائح الخطيئة، ولكن ألبستني جسداً : فحينئذ قلت : هأنذا آت لأعمل مشيئتك (عبر 10 : 6) فهل يمكن تصور دليل أشد صدقاً على الحب السخيّ من هذا الدليل؟)).

2 لعلكم تسألون الآن : كيف؟ وبأية طريقة يكون يسوع المسيح ضحية في القداس؟ لا بدّ لفهم هذا من التذكر أن ليسوع المسيح طريقتين مختلفتين في الحضور.

أولاً، له طريقة وجوده الطبيعي في السماء حيث تتمجد كل جوارح جسده المقدس وقوى نفسه في عيون المختارين. فإن نور المجد الصادر من ناسوته يغني السماء عن الشمس، كما جاء في رؤيا القديس يوحنا : ((ولا حاجة للمدينة الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله أنارها ومصباحها الحمل)) (رؤيا 21). فالتأمل في مجده، والتحدث اليه، والاتحاد به : ذلك للطوباويين.

فرح لا يحدّ، وبهجة لا توصف،

وحياة لا تفنى، وسلام وحب،

وغنى لا ينفد، وسعادة بلا وزن ولا مقياس.

(دانتي، الفردوس، نشيد 27)

ولكن له طريقة وجود ثانية اخترعها حبه لنا، وتدعى طريقة سرية. فكلمة قربانة تعني حرفياً ضحية مقدسة. وهي تحدد حالة الرب.

ولا حاجة لتتميم الذبيحة الى إبادة الضحية أو ذبحها حقاً، فيكفي تبديل حالتها تبديلاً يعرفنا قدرة الله المطلقة وسلطته السامية. تبديلاً يمكن اعتباره في نظر الناس عموماً مساوياً للإبادة.

ولذلك، فبقوة كلمات التقديس، يكون المسيح بطبيعته الإنسانية والالهية حاضراً على المذبح، حقيقة وجوهرياً، كذبيحة، بشكل طعام، وان يكن بحسب قول دي لوغو، غير مباد جوهرياً، إلا أنه مباد بمقدار ما ينحط الى حالة يعجز معها عن استعمال خواص جسده البشري الطبيعية استعمالاً آخر بشكل طعام. وهذا التغيير يكفي لقيام ذبيحة حقيقية.

والمسيح في هذه الحالة يعبد، ويشكر الثالوث، ويقدم ذاته لله من أجل مغفرة خطايانا. فكونه في هذه الحالة هو أنه حقاً في حالة ضحية، لا يمكنه، معها، أن يمشي أو أن يتحرك ويتكلم، أو أن يبدى صراخاً طبيعياً، ويكشف عن ناسوته المقدس بأي نوع من الأنواع.

فهو قائم، بنوع ما، في حالة خضوع نستطيع بها أن نصنع به ما نريد، يمكنا أن نقدم له حبنا واحترامنا، ونعبده مع ألوف القديسين والملائكة، كما يمكنا أن نعامله ببرودة وعدم اكتراث، أو نسخر منه، ونجدّف عليه كالخطأة والشياطين.

3 لا تظنوا أن ربنا في القربانة بلا عمل ولا حياة. لا، بل هو ضحية حية.

وقد كتب الآب دالجرن في كتابه عن التناول : ((لنكن على يقين أن يسوع هو حيّ في سر القربان)).

((واذا اعتبرنا درجات مملكة هذه الحياة العجيبة كلها، من أصغر جسم خفي في قاع البحار الى حياة مريم المجيدة، الى الله الحي أبدياً، لا نجد حياة أقوى من الحياة الموجودة في دائرة القربانة الضيقة.

((فهناك، أولاً، حياة الله الآب والابن والروح القدس، الحياة الأبدية الثابتة، مع جميع أعمال عقله وحبه الواجبة الوجود، وأفعاله الحرة نحو الخلائق. وهناك حياة يسوع الكلمة الأزلي المتحد بالطبيعة البشرية التي اتخذها، والرؤيا السعيدة. وحول الرؤيا

السعيدة حياة يسوع الدائمة التغير، حيث تتوالى في نفسه صنوف الحب، والعواطف والأفكار، تبعاً لحالنا وطبقاً لما يجري في قلب من يحضرون الذبيحة المقدسة.

((فكل نفحة من صلاتنا، وكل نسمة من صدرنا، وكل زفرة من نزعنا، تثير ما عند يسوع من عميم الحب في القربان المقدس. يا لحياة يسوع المدهشة! فمهما تكاثف ما يحجبه من الحجب عن عيوننا، فهو متنبه واع لكل ما يجري حوله، حتى ليفطن لأقل رغبة من رغبات من يزوره، ويستمع مبتهج القلب الى كل ما نهمس به من همسات الحب. هو متناهي الاختفاء، وكأن الأعراض الواهية جدار من الماس يعزله عن كل خليقة، ولكنه على متناول الصلوات، تمسه أو هي همسة من وراء حجابه)).

4 ان الكتب الروحية تقارب دائماً ما بين التجسد وبين حالة الذبيحة في القداس.

فالكلمة الذي كان في جلال اللاهوت ومجده قد تخلّى بالتجسد عن ذاته، باتخاذه حالة العبد الوضيعة، وبمصيره شبيهاً بالبشر، وظهوره بمظهر إنسان، غير أنه – في هذه الحال – لم يتخلّ عن قدرته الالهية، ولا ناله أقل إصغار أو انتقاص في مجده السماوي، وان يكن قد تواضع حتى موت الصليب.

وهو على هذا المثال يومياً في كل قداس باق في طبيعتيه : إلهاً كاملاً وانساناً كاملاً، وحيًّا أبداً، في سعادة السماء غير المتناهية، بلا نقصان ولا إقلال في مجده وسعادته وفي طبيعتيه الالهية والانسانية، تخلى من ذاته تحت ظاهر الخبز والخمر، وتواضع ليخضع لموت سرّي على المذبح، كضحية خلاصية.

هذه الأعجوبة أغرب ما في الدنيا. ولا يمكنا أن نؤمن بها ما لم نؤمن بالتجسد، فإنها بنوع ما تابعة ومكملة له بشكل آخر.

الفصل الخامس

ذبيحة القداس هي ذبيحة الصليب عينها

1 سمعتم كثيراً أن مدرسة القديسين الكبرى هي التأمل في آلام ربنا يسوع المسيح. وقد كانت موضوع تأمل العذراء القديسة الدائم. ولا أحد يقدر أن يدّعى أنه بلغ درجة من القداسة أو اتحاداً بالله، ان لم تتغذّ نفسه بالتأمل الدائم في آلام المسيح وموته.

قد يظهر أولاً أن في هذا التوكيد مبالغة. على حين أنه الحقيقة بعينها، الحقيقة العميقة التي تظهر لكم يقينيتها حينما تسلّمون بأن القداس قد وضع لأجلنا، تذكاراً دائماً وتمثيلاً لآلام يسوع المسيح وموته.

فكيف لا نتخذ من آلام ربنا موضوعاً أساسياً لأفكارنا؟ فإنها لا تغيب عن روح الكنيسة يوماً واحداً ولا ساعة واحدة، لأن ذبيحة القداس لا ينقطع تقديمها كل صباح أبداً في كل مكان على الأرض كلها، بل أمست تقدم في الأمسيات. فما احق أن تظل الآلام، والقداس مطبوعة في صميم روحنا وقلبنا!

2 رأينا في الفصل السابق كيف يصبح ربنا ضحية في القداس، فبقى علينا أن نرى كيف لا يكون القداس ذبيحة تذكارية فقط لذبيحة الصليب بل هو ذبيحة الصليب مجددة.

فيلزم، فيما يخص علاقة زمن تقديمها، أن نلاحظ أن ربنا قد قارب – ما أمكن – بين زمن رسم الذبيحة وزمن الآلام والموت. فكان ظرفا المكان والزمان معدّين لوحدة الفعلين.

فبعد أن أكل ربنا الحمل الفصحي الذي كان أكمل صورة له في العهد القديم، أبطل الى الأبد طقوس ذبائح الشريعة القديمة، وأنشأ محلها ذبيحة الشريعة الجديدة، وهي ما نسميه القداس.

أصغوا الى قوله للرسل : ((شهوة اشتهيت أن أحتفل معكم بهذا الفصح. اشتهيت أن أضع حداً للاحتفالات الرمزية وأن أنشئ محلها ذبيحة الحمل الحقيقي غير الرمزية التي تمحو خطايا العالم. فبعد قليل، أسفك سيلا من الدماء وأموت عنكم على الصليب. ولكن قبل أن أسكب دموعاً دامية على جبل الزيتون وأدخل في نزع الموت، أجعل من هذا عهداً سامياً، وما أسلمكم إياه ليس سواى أنا نفسي. أنا الخبز النازل من السماء، فمن يأكلني يحى بي. ها هي ذي ذبيحة الشريعة الجديدة غير الدموية الى منتهى الدهر، غفراناً للخطايا وتذكاراً لما سأتحمله من الآلام والموت)).

وبعد أن رسم ربنا ذبيحة القربان المعبودة، وهو نفسه الكاهن والضحية، سار لساعته، حتى يقدم الذبيحة نفسها، ولكنها هذه المرة ذبيحة دموية على الجلجلة.

3 يقول لنا الآباء ان المشابهة الخاصة بين ذبيحة القداس وذبيحة الصليب، قائمة في كلا التقديسين اللذين يمثلان بنوع سري انفصال الجسد عن الدم، أو بعبارة أخرى، موت المسيح الحقيقي، بحيث تشبه كلمة الكاهن سيفاً، حسب تعبير القديس غريغوريوس

النزينزي. فربنا هو حقاً تحت كل من الشكلين ذبيحة كاملة، ولكن التقديسين جوهريان لذبيحة القداس : وهكذا شاء المسيح أن يجدد سرياً موته ويذكرنا به.

4 وقد حدد المجمع التريدنتي أن ذبيحة القداس هي ذبيحة الجلجلة نفسها، هي نفسها، لأن هناك وحدة عددية ذاتية في الكاهن الأصلي مقدم الذبيحتين ووحدة عددية ذاتية في الضحية الإلهية المقدمة المباركة الى الأبد. وهكذا، في كل ما هو جوهري للذبيحة، فالذبيحتان من حيث الكاهن ومن حيث الذبيحة : الذبيحة نفسها والكاهن نفسه.

إنما هما تفترقان ببعض عوارض : أولاً، بشكل تقدمتهما. فإحداهما تمت بالألم وسفك الدم المادي، والأخرى تتم بدون ألم وبدون سفك دماء.

ثانياً، إن إحداهما لم تقدم إلا مرة واحدة، والأخرى تعاد تقدمتها كثيراً.

ثالثاً، كان على الصليب الكاهن الأصلي والذبيحة تحت أنظار الناس، أما في القداس، فهما غير منظورين.

رابعاً، وهنا اختلاف ووحدة معاً في غاية هاتين الذبيحتين وأثرهما. ففي ذبيحة الصليب اكتسب الكاهن استحقاقات لا حدّ لها، وقدم لله ترضية وتعويضاً يكفيان للتعويض عن خطايا ألوف العوالم. وفي ذبيحة القداس، لا يكتسب الكاهن نفسه استحقاقات جديدة، ولا يقدم ترضية جديدة، ولكنه يوزع على النفوس، بمقدار ما يلائمها، وما تستطيعه من الاستحقاق والترضيات التي اكتسبها بموته على الصليب وجعلها كنزاً لا يفنى ولا ينفذ على الدهر.

وعلى هذا تكون الذبيحتان ذبيحة واحدة مع فوارق من بعض الوجوه.

فالقداس، فيما يخص مفاعيل الذبيحة في النفس يمتاز عن الجلجلة، لانه أفيد لنا ان نحضر ذبيحة القداس الالهية يومياً، مما لو كنا حضرناها مرة واحدة على الجلجلة.

وإليك السبب : ان يسوع المسيح في القداس يوزع على النفس ويمنحها، طبق استعدادها، ما اكتسبه ولم يوزعه على الصليب. فعلى الصليب افتدانا، وعلى الهيكل يتمم عمل فدائنا.

الفصل السادس

القداس هو مركز العبادة

1 أما نشعر أحياناً بالملل من الناس، وبخاصة من نفوسنا؟ أو تستولى علينا الهموم، وترهقنا المحن، حين نفقد مالنا، أو نحرم قوانا، فنتألم وحدنا، بلا أخ ولا صديق يعزينا. أما تمنينا يوماً أن نكون مع الله سعداء، مستريحين، مسندين رأسنا على قلب المسيح؟ لو كنا نستطيع أن نمضى رأساً اليه ونشكو له همنا، فيمدّ الينا يده وينتشلنا من وهدة بؤسنا، ويقول لنا : امض بسلام!

فلماذا الشكوى، ونحن في القداس نملكه، لا رمزياً كما كان قديماً محتجباً خلف أستار الهيكل، بل جوهرياً وشخصياً، بكل قدرته الحية وحبه الرحيم، محجوباً بالأعراض السرّية الشفافة. هذا الحجاب إن يكن عند الحس البشري وعند العلوم البشرية سميكاً كجدار من ماس لا يخرق، فإنه عند ربنا أرق وأدق من خيوط العنكبوت، وهو يقرب المسيح منا اقتراب الشكلين عينهما.

وما هذا بقصة، أو صورة، أو خبر عن حياته المعروضة أمامنا في الذبيحة. فالاله المتجسد نفسه حاضر هناك حقاً، في كل ما رافق حياته، منذ تجسده حتى اللحظة الحاضرة، فهو الكاهن الالهي في حشا البتول، وهو الطفل الباكي في المهد، والمعلم يشرح لتلاميذه كيف يصلون، والراعي الرحيم يشفق على الجموع التي لا راعي لها، وهو الطبيب شافي نفس المرأة المسكينة وقد أخذت بخطيئة، وهو المعزي لكل بائس ويائس. هو هنا، هو هنا.

هو الراعي الصالح الذي حمل على كتفيه بؤسنا، وآلامنا، وآثامنا الشنيعة. هو الكاهن الذي تقدم ضحية عن خطايانا، وسمّر على الصليب، مع جسده، حكم هلاكنا، هذا الجسد الذي دفن وقام من بين الأموات وصعد الى السماء، وما ينعم به من الحياة المجيدة الآن في السماوات، كل هذا حاضر من أجلنا. فماذا يمكنا أن نتمنى فوق هذا، إلا أن نشاهده في مجده الأبدي؟

2 افتحوا عيون الإيمان وتأملوا في المذبح. فإن مذابح الدنيا كلها ما هي إلا مذبح واحد، وجميع الذبائح ما هي إلا ذبيحة واحدة، والكاهن الواحد الأكبر هو يسوع المسيح، الكاهن نفسه، وضحية الجلجلة وذبيحتها نفسها حاضرة دائماً على المذبح، في هذا الهيكل العظيم كالعالم الذي يدعى الكنيسة.

تأملوا في هذا المشهد العجيب، تروا فوق الهيكل السماوات مفتوحة، وجلال الله الرهيب، والنور الباهر، وندى السماء، وسيول النعم الغزيرة لا تبرح تغمر الدنيا بفيضانها، فمريم، ويوسف، والرسل، والقديسون، وجموع كثيرة من أرواح الطوباويين تعبد المسيح، وتمدحه، وتباركه، وتشكره بأناشيد متناهية جودة وعذوبة من أجل ما منحهم من المواهب، ومن أجل سر الجلجلة العجيب المتجدد على الداوم. فالخلق برمته مدين لربنا يسوع المسيح، وما من ملاك إلا قبل من ملئه السعادة والنعمة، كما يقول القديس توما : ((ان ملء النعمة بالمسيح هو علة ما تملكه كل خليقة عاقلة من النعم)) (يوحنا 1 : 16).

وأمام الهيكل تحتشد جموع المؤمنين، أشبه بذاك ((العدد الكبير من المرضى، والعميان، والعرج والمخلعين الذين كانوا ينتظرون تحرك الماء)) (يوحنا 5)، ولكنهم هنا ينتظرون من هو أعظم من ملاك. نرى بينهم مريمات مجدليات في خطاياهن المخجلة، ومثل سمعان بطرس في نكرانهم العنيد، وكثيرين كنيقوديموس في مخاوفهم وجبنهم، وها هوذا اللص يتوب عند تقدمة الذبيحة، ولونجين مع حربته، عند ما طعن بها قلب المسيح، وخلائق لا تحصى، لا تبرح تئن وتتألم آلام المخاض.

أيها الطفل المسكين، تعال ههنا مع قلبك المعذب، تعال الى الذبيحة فيكون لك خير عظيم. لقد هدّت قواك المحن، والخسائر، والآلام، والفقر، والعار والوحدة. فعجّل وامض الى القداس، هناك تجد من حسب كدودة أرض، لا كبشر، يعرف العذاب ما هو، لقد أضنكه ما حلّ به من المحن. فلن تكون بعدئذ وحدك، دون صديق، لقد وجدته، فيخاطب قلبك ويكون قوتك وعزاءك.

انظر ما أكثر رحمته! انه لا يظهر لك ببهاء مجده السماوي، بل بظواهر بسيطة، كضحية وذبيحة، على مذبح وضيع يقدر البشر المساكين المعذبون والخطأة البائسون أن يقتربوا منه، متكلين عليه ويقولوا : ((ان حبرنا ليس ممن لا يستطيع أن يرثى لضعفنا، بل قد جُرّب في كل شيء مثلنا، ما خلا الخطيئة)) (عبر 40). ما أسعدك لو قدرت أن تلقى حملك، كل يوم عند قدميه.

إننا نرى حولنا، والى أبعد ما يستطيع بصرنا، عدداً من الشعوب الجاهلة، الكافرة، الغارقة في الشر، ولكن هذه الشعوب نفسها تشترك، ولو بطريقة غير مباشرة، بثمار الذبيحة، ولا أحد منها مختف عن أنظار ربنا، وجميعها مدعوة لأن تصبح أعضاء في

الكنيسة، وتشترك في الذبيحة، وتناول الخلاص. فالقداس يقدم من أجل خلاصنا وخلاص العالم كله.

الفصل السابع

الكمالات الإلهية ظاهرة في القداس

1 الكاثوليكي الحقيقي يتأمل في القداس بأعظم مظاهرة وأعذبها للكمالات الالهية.

فهو يستشف، من وراء حجب الإيمان، شعاعاً من حكمة الله غير المتناهية، يرى كيف منح الله البشر بالقداس وسيلة لكي يقدموا، بواسطة رأسهم وكاهنهم يسوع المسيح، للثالوث الأقدس المعبود، سجوداً، وشكراً ومجداً لا حدود لها، لا مرة واحدة. بل مراراً والى منتهى الدهور. فما أغرب ما أعطى الله الانسان من هذه الأفعال السامية التكريم، اذ وكل أمر الاحتفال بها مراراً الى إرادة الإنسان!

ولكي يحثنا بدافع المنفعة الشخصية، على تقديم القداس أكثر ما يمكن، فقد حدد بحكمته غير المتناهية ما تجنيه نفوسنا من الثمار، وقت القداس. فنحن نعلم بنوع أكيد أن هذه الثمار مخصصة لنفسنا، في كل قداس، ما لم نضع بيننا وبينها مانعاً، غير أن مقدار هذه النعمة يبقى خفياً عنا.

فحكمة الله عند هذا التأكد من العطية، والشك من مقدارها، تدعونا، برفق وبوجه فعّال، الى الإكثار من القداديس، من أجل احتياجاتنا أو من أجل النفوس التي في المطهر. فنكثر في الوقت نفسه أفعال العبادة والمديح والشكر بما نقدمه للعزة الالهية.

2 فالقوة الالهية تثبت في القداس بأعجوبة تحول الخبز والخمر الى جسد يسوع المسيح ودمه، هي أعجوبة تتضمن – كما يقول لسيوس في (الكمالات الالهية، كتاب 12) – سبع معجزات مختلفة تتعلق بأعراض وجواهر عنصر الذبيحة المادي (الخبز والخمر) وكيفية وجود المسيح السرية. هذه المعجزة هي من الغرابة بحيث تتجاوز كل قوة وكل فهم بشري، نعم، إنها تتجاوز كل قدرة مخلوقة، عدا ناسوت المسيح القدوس الذي يمكنه وحده أن يقوم بها من حيث إنه آلة الهية (آالة اللاهوت). المسيح وحده يتممها، بينما الكاهن يلفظ باسمه كلماته الالهية الخاصة.

3 ثم تلمع في القداس جودة الله غير المتناهية، نحونا، نحن الخطأة، لمعاناً باهراً، فتتأكد أولاً بامتداد سر التجسد العجيب، اذ يولد الكلمة المتجسد، بنوع ما، ميلاداً جديداً، بين أيدينا، وتتجدد ذبيحة الصليب السرية، فتمنح الجودة الالهية ((من تعلم ما عندهم من الإيمان والعبادة))، زيادة في الإيمان، والرجاء، والمحبة، وفضائل أخرى، مع الإعفاء من عقوبة الخطيئة، والقدارة على تقديم الإكرام والشكر غير المتناهيين لله تعالى.

4 وتظهر في القداس قداسة الله غير المتناهية، وتقوم القداسة بالغيرة على مجد الله والبغض للخطيئة. فذبيحة الصليب كانت فعل غيرة غير متناهية على مجد الله، وترضية، وكفارة عن ذنوبنا لا حدّ لها.

والضحية المعبودة، كلما تقدمت في القداس، شعرت بنفس ما شعرت به يوم تقدمت على الصليب، من الغيرة على مجد الله والكره للخطيئة.

وقداسة الله خليقة أن تقبل من كنيسته إكراماً غير متناهي التقديس، وهذا الإكرام الغير المتناهي التقديس تقدّمه الكنيسة لله، كلما تقدم فيها قداس.

5 وعدل الله غير المتناهي، ورحمته غير المتناهية حاضران هما أيضاً وقت تقدمة القداس. فلما أخطأ الإنسان، طالبه عدل الله غير المتناهي بترضية وتكفير غير متناهيين يعجز عن تقديمهما. فتدخلت رحمة الله غير المتناهية وتحملت دين الإنسان. لهذا لم يشفق الله على ابنه نفسه، بل أسلمه من أجلنا. وحين كنا لا نزال خطأة، مات المسيح من أجلنا حتى يكفر عن خطايا الشعب (روما 8، عبر 2)، فالقداس هو مقاضاة العدل الالهي الدائمة من جهة، والرحمة الالهية من جهة أخرى.

جميع هذه الكمالات غير المتناهية تظهر في كل ما يقدم من القداسات.

الفصل الثامن

ما يظهر في القداس من فضائل ناسوت المسيح المقدس

يسوع المسيح هو مثالنا الأكمل. وهأنذا أذكر بعضاً من الفضائل التي يقدم لنا منها مثالاً في القداس تصلح موضوعات للتأمل والصلاة :

1 يسوع المسيح يعطينا هنا دليلاً على أشد الحب لله، الحب الحر المستقل عن كل إكراه، فابن الله يغدو بطبيعته البشرية ضحية ويتقدم يومياً في القداس محرقة، معترفاً بقدرة الله السامية وبذلة الانسان. فهذا التكريم دليل دائم على حب المسيح لأبيه.

وكلما قدّمت الذبيحة المقدسة، قدّم يسوع المسيح لله مجداً وإكراماً بما لا يحد من كل ما يستطيع الملائكة والبشر معاً أن يقدموه.

2 وحبه غير المتناهي للبشر يظهر في الذبيحة المقدسة. فهو رغم ما قاساه مدة حياته على الأرض، وما لقيه من نكران الجميل فيما بعد، لم يزل يتقدم ذبيحة، ويرغب رغبة صادقة وفعالة أن يقدم لنا الوسيلة لكي نتمم كل يوم واجباتنا الأربعة المفروضة علينا. ((أحب خاصته، أحبهم الى الغاية)). ويقول القديس الذهبي الفم : ((ان الرعاة لا يغذون نعاجهم بدمهم، والأمهات كثيراً ما يسلمن أطفالهن الى المرضعات الغريبة، أما فادينا، فيبلغ به حبه لنا الى أن يغذينا يومياً بجسده ودمه، ويضمنا اليه بأوثق رُبط الحب.

3 تأملوا تواضعه. هل كان ممكناً أن يأتي الينا بحال أوضع من كسرة خبز صغيرة؟ هو الساكن في مجد أبيه، ينحط الى حال أدنى من حال الضحية على الهيكل، ثم يعترف بأن عطايا طبيعته البشرية جميعها ومجدها إنما هي آتية من الله وأنه هو خاضع له وحده. فتعلم أيها الرماد والتراب، أيها الإنسان الخاطئ، تعلم التواضع في ذبيحة القداس.

4 والوداعة، واللطف، والصبر، والطاعة وجميع ما ينقصك من الفضائل الأخرى، فكلها مهيأة لك، ان شئت أن تراها في نفس يسوع القدوسة، حين تكون الضحية الوديعة، اللطيفة، الخاضعة على الهيكل المقدس.

ما أقوى الأسباب التي يجب أن تدفعنا الى استماع القداس بعواطف الإيمان والحب، لا يوم الأحد فحسب، بل كل يوم، إن أمكن، من أيام حياتنا.

الفصل التاسع

الملائكة يحضرون القداس

1 هو اعتقاد أكيد في الكنيسة أن الملائكة يحضرون الذبيحة المقدسة، في كل قداس، ولا غرابة في ذلك. اذ لا شيء، يتم في السماء أعظم ولا أقدس من القداس، فتقدمة يسوع على مذابح أرضنا ترتعش لها كل أجواق السماء، وبينما هي تمنحنا النعمة والمغفرة، تقوم بعمل لا حد له من العبادة والشكر يتردد صداه كأطيب الألحان، في أرجاء الخلق كله. فاسمعوا كيف يعبر القديس يوحنا الذهبي الفم عن اعتقاد الكنيسة الشرقية في حضور الملائكة :

((وقت تقدمة الذبيحة، تقف الملائكة، حوالي الكاهن، وجميع طبقات السماويين تصلي بحرارة، والهيكل يمتلئ من أجواق الملائكة، يأتون لكي يكرموا من يتقدم للتضحية. ويمكنا بلا صعوبة أن نؤمن بجميع هذا، لما هو معروف عن طبيعة هذه الذبيحة. وقد سمعت من يروي هذا الحدث الآتي، وكان قد أخذه عن شيخ جليل كثيراً ما أوحى الله إليه بأسراره. فقد رأى يوماً رؤيا واضحة كل الوضوح لما كان يحدث وقت القداس، رأى حشداً من الملائكة يحلون فجأة في المعبد، بهيئة بشرية، وعليهم ملابس برّاقة، وكانوا يحيطون بالمذبح، ثم حنوا رؤوسهم إجلالاً كما ينحني البلاط أمام الملك. أنا لا أستصعب مطلقاً تصديق هذا الخبر)) (كتاب الكهنوت 6).

وبينما كان يخاطب، مرة أخرى، شعب أنطاكية قال : ((يمكنكم أن تصلوا في بيوتكم، نعم، ولكنكم تصلون صلاة أفضل في الكنيسة. وان صليتم وحدكم، تكون صلاتكم أقل قبولاً مما لو صليتم مع إخوتكم. فليس البشر وحدهم يعبدون ويصلون في هذا المكان الرهيب، بل الملائكة أيضاً يسجدون ويصلون وقت الاحتفال بالذبيحة الالهية، لأنهم يعرضون على الله جسد الرب، ويطلبون منه، ملحّين وقائلين : إنا نسأل رحمتك من أجل من سبقت فأحببتهم، نتوسل إليك من أجل من أحببتهم حتى ضحيت في سبيلهم بهذا الجسد)).

وإحدى الليتورجيات القديمة المارونية تتضمن هذه الكلمات الصريحة : ((قوت السما أحاطت معنا بمائدة المذبح تقدم أسرار الحمل الذي قدامنا يذبح))

وتقول في موضع آخر : ((أجواق الملائكة تمشي أمام ملك الملوك عندما يتقدم لكي يضحي ويعطي غذاء للمؤمنين)).

وجاء في القداس القبطي الإسكندري قبيل كلام التكريس :

((الذي يقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة والرئاسات والسلطات والكراسي والربوبيات والقوات)).

الذي يقوم حولك الشاروبيم الممتلئون أعيناً.

والساروفيم ذوو الستة الأجنحة يسبحون على الدوام بغير سكوت قائلين :

وهنا يجاوب الشعب على الكاهن :

تعالوا الى المائدة نبارك الله مع الملائكة ورؤساء الملائكة صارخين وقائلين : قدوس قدوس قدوس أنت ايها الرب، هللويا. مع الشاروبيم نرسل التسبيح قائلين قدوس قدوس قدوس أنت أيها الرب. هللويا. تفرح السماء وتتهلل الأرض والشاروبيم يبسطون أجنحتهم ويصرخون ثلاث مرات كمثال الثالوث : قدوس قدوس قدوس أنت يا رب. هللويا. (من القداس الباسيلي للطقس القبطي).

2 وهذا الاعتقاد يثبته في الغرب كثيرون من المعلمين وآباء الكنيسة فالبابا غريغوريوس الكبير، من الجيل السادس يقول : ((أي مسيحي صادق الإيمان يمكنه أن يشك في ان السماء تنفتح ساعة الذبيحة، عند كلمات التقديس، وأن الملائكة تحضر سر يسوع المسيح؟ إن أعظم ما في الوجود يتحد بأدنى ما فيه، فالسماء تقترن بالأرض، ويصبح المنظور وغير المنطور واحداً)) (حوار 4، 58).

ويضاف الى كلام القديس غريغوريوس قول القديس أمبروسيوس، عند كلامه عن الملاك الذي كان واقفاً بجانب زكريا عند ما كان يقدم البخور، قال : ((ان كان ملاك يقدر أن يعيننا عند ما نبخر الهيكل ونقدم الذبيحة، وإن كان يقدر أن يظهر لعيوننا، فلا يمكنكم أن ترتابوا في أن ملاكاً يحضر الذبيحة حينما يكون المسيح حاضراً وحينما يكون المسيح ذبيحاً)).

هذا الاعتقاد كان مألوفاً عند مسيحي إنجلترة من أول عهودهم. وإليكم كلمات المكرم ((بيدا)) الذي يعتبر ممثل الكنيسة الإنجلوسكسونية : ((لا يحدثن أي شيء خفيف، وغير لائق، أو ما من شأنه أن يلهى قريبنا في بيت الصلاة، حيث يتقدس جسد الرب، وحيث يكون الملائكة دائماً حاضرين. فإن عدداً كبيراً من هذه الأرواح الطوباوية ممن سهروا بكل عناية على جسد المسيح المقدس، عندما كان في القبر، يحضرون حينما يحتفل بسرّ جسده ودمه، هذا أمر لا ريب فيه. ولذلك، يجب علينا، يا اخوتي، كلما دخلنا الكنيسة لكي نحضر الذبيحة المقدسة، أن نبذل جهدنا لنتذكر حضور الملائكة ونقدم لهم

ما يحق لهم من واجب الخشية والاحترام، على مثال القديسات عند القبر. ((فإنهن كن خائفات وقد نكّسن رؤوسهن في الأرض)) (لوقا 24 : 5).

ويقول التقى والعلامة الإنجليزي ((ألكوين)) تلميذ ((بيدا))، في اعترافه بالإيمان، عن حضور الملائكة وقت القداس : ((إن القداس، فعل العبادة هذا، يقدمه الكهنة وأسرة بيت الله جميعاً لله وحده. فالملائكة القديسون والأرواح الطوباوية يؤلفون معنا مدينة الله، فقسم من هذه المدينة على الأرض، والآخر في السماء. ولا شك أن سكان السماء يحضرون الاحتفال بالقداس لكي يقدموا للجلال الالهي الأسرار المقدسة على مذبح أعلى، مذبح صلواتهم وخدماتهم الملائكية. وعلى هذا، يجب أن نعتقد أن المسيح حاضر وقت الذبيحة لكي يقدس عناصرها التي على المذبح، وهو محوط بالأرواح السماوية التي تخدمه)) (مؤلفات ألكوين. مجموعة مين ص 1087).

والقديس أنسلموس أسقف كانتوربرى يثبت فيما كتبه من الصلوات للعاديين من المؤمنين وجود هذا الاعتقاد في كنيسة نورمندية فيقول : ((لا ترتابوا في أن الملائكة وقت تقدمة جسد فاديكم ودمه هم ساجدون قدام خالقهم، يقدمون لجسده ودمه أعمق الإكرام والإجلال)). وهناك صلاة ألفها القديس أنسلموس ليتلوها الكهنة قبل القداس :

((أي توجع في القلب، وأي سيل من الدموع، وأي احترام، وأية خشية، وأية عفة في الجسد وطهارة في الروح، لا ينبغي أن تكون عندي، يا رب، للاحتفال بهذه الذبيحة الالهية السماوية، حيث جسدك مأكل حقيقي ودمك مشرب حقيقي، وحيث يتحد ما هو أدنى بما هو أسمى، وحيث يتجمع الملائكة القديسون، وتكون أنت، بنوع عجيب فائق الوصف، كاهناً وضحية معاً)).

ويمكن القول إن هذا التعليم قد أوجزه بنديكتس الرابع عشر في كتابه عن القداس، فقال : ((ان الكنيستين اليونانية واللاتينية قد اعتقدتا دائماً بأن الملائكة، بعد التقديس، ينحدرون من السماء ويحيطون بالهيكل، ساجدين ليسوع المسيح الحاضر حينئذ حقاً)) (كتاب 11 فصل 15 ص 26).

3 لم يبقى لي إلا كلمة أقولها، زيادة لعبادتكم، قبل ختام هذا الفصل، عن ذخائر الشهداء القديسين التي تقدم فوقها الذبيحة الإلهية. يقول القديس يوحنا : ((رأيت تحت المذبح نفوس من قتلوا، لأجل كلمة الله، ولأجل الشهادة التي شهدوا بها)) (رؤيا 6 : 9). هل مرجع هذه الرؤيا الى عادة كانت مألوفة أيام القديس يوحنا، أو هي نفسها أوعزت

بالاحتفال في القداس على ذخائر الشهداء؟ هذا مما يصعب الجواب عنه. غير أن الأكيد هو أن الذبيحة المقدسة كانت منذ أوائل المسيحية تقدم على ذخائر الشهداء القديسين.

يقول لينجارد : ((ان وجود الذخائر كان يعتبر بالعموم ضرورياً لتدشين كنيسة أو مذبح تدشيناً قانونياً. لذلك اهتم القديس غريغوريوس الكبير، لما عرف بنجاح المرسلين في انجلترا، فأرسل اليهم ذخائر جديدة (آثار الكنيسة الإنجلوسكسونية).

فجميع المذابح التي تقدم عليها اليوم الذبيحة الالهية تحتوي على عظام الذين سفكوا دماءهم من أجل الإيمان، ومن أجل المسيح. وعند ما نكرم ذخائرهم، وقت تقدمة الأسرار المقدسة، تستغرق نفوسهم في سجود عميق وشكر صميم.

4 فكيف يمكنا أن نبقى باردين وغير مكترثين، ونحن مع الملائكة والقديسين؟ كيف نبقى ساهين لاهين، وقت القداس، بينما الملائكة والطوباويون لا يغفلون لحظة عنه؟ بل أخص من ذلك، كيف نبتعد تماماً عن القداس، مفضلين النوم، والراحة، واللهو السخيف، وبعض المشاغل الزهيدة، أو الأحادئث الباطلة، على حين أنكم اذا ذهبتم الى القداس، كما يقول الرسول : ((دنوتم الى جبل صهيون ومدينة الله الحي وأورشليم السماوية، والى محفل ربوات من الملائكة، والى كنيسة الأبكار المتكوبين في السماوات، والى الله ديان الجميع والى أرواح الصديقين المكملين، والى يسوع وسيط العهد الجديد، والى دم رشيش ينطق بأبلغ من دم هابيل، فاحذروا أن تستعفوا من الذي يكلمكم، فإنه ان كان الذين استعفوا من المتكلم على الأرض، لم يفلتوا، فبالأحرى كثيراً نحن اذا أعرضنا عن المتكلم من السماء الذي زعزع صوته الأرض، حينئذ والآن وغداً قائلاً : اني، مرة بعد، أزلزل لا الأرض فقط بل السماء أيضاً. فقوله مرة بعد، يدل على تحويل ما يتزعزع من حيث هو متمم حتى يبقى ما لا يتزعزع. فلذلك، اذ قد حصلنا على ملكوت لا يتزعزع فلنتمسك بنعمة نعبد بها عبادة مرضية بتقوى وورع)) (عبر، 12 : 22 – 28).

الفصل العاشر

غايات القداس الأربع

1 على كل خليقة عاقلة واجبان تلتزم ان تقوم بهما نحو خالقها : أن تعترف، أولاً وجهاراً، بأنه رب الحياة المطلق، وأن تعترف، ثانياً وجهاراً، بعلاقتها الخاصة بخالقها

الذي هو مبدؤها الأول وغايتها الأخيرة علاقة مطلقة تشمل الحياة كلها وكل ما فيها، مدى العمر ومدى الأبدية.

وينشأ عن ذلك ثلاثة واجبات :

1 وجوب السجود لله وتقديم العبادة له،

2 وجوب الشكر على إحساناته،

3 وجوب الصلاة للحصول على نعم أخرى، في الحاضر وفي المستقبل، لأن الخالق حر في أن يمنح أو يمنع.

واذا تمردت الخليقة على ربها وخالقها، ترتب عليها، لذلك، واجب رابع هو واجب التعويض والتكفير للعدل الغير المتناهي الذي أهين، وهذا ما يدعى الاستغفار.

فهذه الواجبات الأربعة نحو الله تقابلها غايات الذبيحة الأربعة.

وقد عرف الناس، منذ القدم، هذه الواجبات وتمموها بتقديم الذبائح، كما عيّن الله في الشريعة الموسوية، بعض الحيوانات الصالحة للتضحية، وهي ما كان الإنسان قد أنّسه منها وطبع عليه شيئاً من مثاله، بما كان يواصله به من العناية، ويستعين به على غذائه، حتى الأشياء الجامدة نفسها مما كان يستخدمه منها في طعامه، كان يقدمه ذبيحة عنه، ويعترف بسلطان الله السامي وبخضوعه المطلق له.

كان نوع التقادم يختلف باختلاف كل واجب من الواجبات الأربعة المفروضة، غير أنها جميعها لم تكن عند الخالق سوى رموز للذبيحة الكبرى الآتية، يدعوها القديس بولس ((أركاناً ضعيفة فقيرة)) (غلا، 4 : 9).

فكان لا بد من ذبيحة لائقة بالله.

ولكن، لم يكن لا البشر ولا الملائكة، على ما هم عليه من النقاوة، أهلاً لأن يقدموا لله ما هو حقيق به من العبادة والمديح، والشكر، وصار الإنسان بعد أن أخطأ أعجز من أن يطلب من الله أن يستجيب دعاءه، وأبعد من أن يقوم بالتكفير الكافي عن معصيته.

واذ صار واجباً أن تقدّم للعزة الإلهية عبادة وشكر كاملان، وأن يتجاوز التكفير ما لحق بقداسة الله وبره من الإهانة، وترتفع نحوه تعالى صلاة أهل للقبول، حينئذ أرسل الله ابنه الى العالم، فاتخذ طبيعة بشرية كاملة، ضمها الى طبيعته وأقنومه الالهيين،

وأخذ على نفسه واجبات البشر والملائكة نحو خالقهم، حتى يؤديها، نيابة عنهم تأدية كاملة.

فصفوف الملائكة الذين يملئون السماوات هم مدينون له بما عندهم من مواهب النعمة والمجد. فبه غدوا جديرين أن يقدموا لله، الآن والى الأبد، واجب العبادة، والمديح والشكر الكامل كما هو مذكور في طقوس القداس : ((به (بالمسيح) تسبّح لعزتك الملائكة، وتسجد لها السيادات، وترتعد منها السلاطين، وتشترك في تبجيلها السماوات وقوات السماوات، السارافون الطوباويون))...

ونحن أخيراً ((به ومعه)) نحن خطأة، مدة نصف ساعة القداس، نستطيع أن نتمم واجباتنا الأربعة العظمى نحو الله تتميماً لائقاً.

فلنحاول الآن أن نفحص بالتفصيل هذه الواجبات الأربعة في علاقتها بالقداس.

الفصل الحادي عشر

لماذا تلتزم كل خليقة عاقلة أن تذهب الى القداس؟

(أ) القداس هو ذبيحة عبادة سامية

1 عندكم أوجب الأسباب لحضور القداس.

فالقداس هو ذبيحة عبادة لا تقدّر قيمتها بثمن، تقدّم أمامكم. وهي تستمد قيمتها من شخص مقدمها الكاهن الأكبر يسوع المسيح ومن الضحية. والله يقبل منه، في كل قداس، بصفته رأس الجنس البشري، أسمى فعل عبادة له قيمة غير متناهية. أيكون أمراً تافهاً الاشتراك بهذا الفعل؟ أما ان الاشتراك فيه هو من أعظم النعم، سواء أقدّمنا الذبيحة بنفسنا أم حضرنا تقدمتها.

يذكر عن خادمة الله تقية أنها شعرت يوماً بقلبها يتقطع حزناً لرؤيتها أنها عاجزة عن تكريم الله كما يليق بجلاله الالهي، وتمنت، في كآبتها لو تكون لها قلوب وألسنة بعدد أوراق الشجر وعدد قطرات المطر، لكي تعبده وتمدحه بها. فسمعت صوتاً رقيقاً يعزيها قائلاً : ((لا تحزني، يا ابنتي العزيزة : احضري القداس بإيمان حي وتقوى عظيمة ...

ففي كل قداس يقدّم إكراماً لي كل ما تتمنينه من العبادات ومن المدائح. وهذه العبادات والمدائح لا حدّ لقيمتها)).

إن فعل العبادة هذا الذي يقدمه ربنا يعتبره بعض الكتاب الروحيين سند العالم الأكبر، والسبب الأعظم الذي يدعو الله الى أن يشفق علينا ويرحمنا. هكذا صبر الله على إسرائيل من أجل ابراهيم، واسحق، ويعقوب وداود، ولو وجد عشرة أبرار في سدوم لنجت سدوم من الدمار من أجلهم.

2 لقد سهّل الله علينا واجب عبادته، حين أصبح قريباً منا في القداس. كان الناس في القديم يجدون مصاعب كثيرة لكي يعبدوا رباً لا يستطيعون أن يروه، فصار لذلك إنساناً حتى نستطيع أن نراه ونعبده إنسان اله، وقد كتب : ((حينما أدخل البكر الى المسكونة قال لتسجد له جميع ملائكة الله)) (عبر 1 : 6)، والإنجيل يقول : كان الناس يجيئون أمام الرب ويعبدونه، فيقبل عبادتهم كما قبل عبادة الملائكة.

وهو على مثال ذلك، حاضر على الهيكل في القربان المقدس، إلهاً حقاً وإنساناً حقاً. ((ليس من شعب آلهته قريبة منه كقرب إلهنا منا)).

3 اسمعوا كيف يصف القديس يوحنا ما يقدم في السماء من العبادة للذبيحة الالهية : ((رأيت فإذا حمل قائم، كأنه مذبوح.... ورأيت، فإذا أنا أسمع أصوات ألوف وألوف من الملائكة يقولون بصوت عظيم : مستحق الحمل المذبوح أن يأخذ القدرة، والغنى، والحكمة، والقوة، والكرامة، والمجد، والبركة.

وكل خليقة مما في السماء، وعلى الأرض، وتحت الأرض، ومما في البحر وكل ما فيها سمعتها تقول : البركة، والكرامة، والمجد، والعزة للجالس على العرش، وللحمل الى دهر الدهور، فقالت الحيوانات الأربعة آمين، فخرّ الأربعة والعشرون شيخاً وسجدوا للحي الى دهر الدهور)) (رؤيا 5).

4 كان القديس يوحنا الصليبي يميل ميلاً الى خاتمة القداس الخصوصية : خاتمة السجود، وكان كلما ساغ له أن يتلو قداساً غير مفيد، تلا قداس الثالوث الأقدس.

وكان القديسان أغناطيوس وفيليب دي يرغبان أن يبقيا وحدهما وقت القداس، ليتمكنا من إرواء عطش تقواهما الحارة، ويذرفا الدموع الغزيرة تعبداً، أمام الله الحاضر أمامهما كضحية، في القداس.

الفصل الثاني عشر

لماذا يجب على كل خليقة عارفة للجميل

أن تذهب الى القداس؟

(ب) القداس هو ذبيحة شكر

1 يدعى القداس بكل صواب ذبيحة قربانية، أي ذبيحة شكر. فكيف نقدر نحن أن نشكر الله على كل ما صنع إلينا؟

تأملوا هذه الكلمات البديعة من سفر يشوع بن سيراخ (43 : 29 – 36) : ((إنا نكثر الكلام ولا نستقصي، وغاية ما يقال إنه هو الكل – ماذا نستطيع من تمجيده وهو العظيم فوق جميع مصنوعاته، مرهوب الرب، وعظيم جداً وقدرته عجيبة. ارفعوا الرب في تمجيده ما استطعتم، فلا يزال أرفع. باركوا الرب وارفعوه ما قدرتم، فإنه أعظم من كل مدح. بالغوا في رفعه قدر طاقتكم، لا تكلّوا، فإنكم لن تدركوه. من رآه فيخبر؟ ومن يكبره كما هو؟ وهناك خفايا كثيرة أعظم من هذه فإن الذي رأيناه من أعماله هو القليل)).

ويقول القديس أغسطينوس ما يتفق مع العقل : ان الشكر هو جزء جوهري علينا من عبادة الله.

2 علي الآن أن أوجه اليكم، من قبل الله، بعض اللوم.

إنكم ناكرون لجميله تعالى. تقبلون كل يوم عطاياه وتنعمون بإحساناته، كأنها حق واجب لكم. وان قلتم : نشكر الله، فما أقل شعوركم بهذا الشكر. أليس هذا حقاً؟ قد كان واجباً عليكم أن تشكروا الله كل يوم، طول النهار، على حين أنكم لا تكلفون نفسكم تعب الذهاب الى الكنيسة، آخر يوم من السنة لتشكروه على ما نلتم من فضله ونعمه، طول العام.

ان سلوكاً كهذا ليس مخالفاً للصواب فحسب، بل هو حماقة جسيمة. فقد صدق القديسان يوحنا ذهبي الفم وبرنردس بقولهما : ان الله يمسك ما كان يريد أن يعطينا إياه من النعم

والبركات، لأننا نقصر فيما يجب علينا من شكره، وهو يمسكها، أولاً، قصاصاً ثم رحمة لئلا يعاقبنا على نكران جديد للجميل.

ان نكراننا للجميل هو جنون غريب، وان كثيراً من أمراضنا، وخسائرنا، وآلامنا إنما سببها عدم شكرنا للنعم، ولو كنتم بخلاف ذلك، لأصبحتم سعداء ولطفاء، ولا سيما أنتم أصحاب الطباع الجافية السريعة الغضب.

3 يقول القديس بولس في رسالته الى أهل أفسس (5 : 20) : ((يجب علينا أن نكون شاكرين كل حين على كل شيء لله الآب، باسم ربنا يسوع المسيح))، وفي رسالته الى أهل فيلبي (4 : 6) : ((لتكن طلباتكم في كل شيء معلومة لدى الله بالصلاة والتضرع مع الشكر))، وفي رسالته الى أهل كولسي (4 : 2) : ((واظبوا على الصلاة واسهروا فيها بالشكر)).

وللقديس غريغوريوس النيصّي في هذا المعنى كلام بديع، فيقول : ((أعتقد أننا لو كنا نقضي كل لحظة من حياتنا في محادثة الله بلا تشتت فكر، ولا نعمل شيئاً آخر إلا أن نشكره، لبقينا حقاً مقصرين كثيراً عن شكره تعالى المحسن الينا، وكأننا ما فكرنا في شكره البتة. لأن الزمان يشمل ثلاثة أوقات : الماضي، والحاضر، والمستقبل. فإذا نظرتم الى الحاضر، فإنكم الآن تحيون بالله، واذا التفتم الى المستقبل، فهو في كل شيء رجاؤكم الأوحد، أما في الماضي فإنكم لولاه لما ظهرتم في هذا العالم. فكان ميلادكم بركة عليكم، وحياتكم وموتكم، كما يقول الرسول، هما أيضاً بركته، ومهما كانت آمالكم المستقبلة فهي متعلقة ببركته، وليست لكم سلطة إلا على الحاضر، ولذلك فإذا كنتم طول حياتكم لا تنقطعون عن الشكر، ولو مرة واحدة، فإن شكركم لله لا يكاد يفي بشكر الزمن الحاضر، ولا تستطيعون أن تجدوا وسيلة للوفاء عن الماضي والمستقبل)).

وإن وجدت ثمة وسيلة تستطيعون بها أن تشكروا شكراً لائقاً في كل شيء، فهذه الوسيلة إنما هي القداس، فيسوع المسيح في القداس يقدّم، بصفته رأس الجنس البشري كله، شكراً متواصلاً غير متناه لله الآب، فيمكنكم أن تضموا صوتكم الى صوته.

القداس ممتلئ بكلمات الشكر : في المجد لله في الأعالي، وفي المقدمة، وفي قانون القداس، وفي كل صلاة نختم بقولنا : ولك نرفع المجد والشكر والسجود، أيها الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان والى دهر الداهرين.

وقد رسم الرب القداس لكي يكون ذبيحة شكر دائمة من أجل خلقنا، وحفظنا، وفدائنا، وتبريرنا، ومن أجل جميع البركات الروحية والزمنية التي يحتملها تبريرنا.

4 كان القديس توما الأكويني، بعد تقدمته قداسه، يخدم قداساً آخر حتى يقوم بأفعال الشكر. والبابا نفسه وألوف من الكهنة يحضرون بعد قداسهم ثانياً للشكر، وكان من عادة الأب فابر أن يقدم قداسات، ويطلب من كهنة آخرين أن يقدموا قداسات للتعويض عن التقصير في الشكر لله.

فقدموا قداسات، واحضروا القداس، شكراً لله : شكراً له على عظمة مجده، شكراً لغزارة نعمه وبركاته التي يغمر حياتكم بها، شكراً لأفراحكم وأحزانكم، لأرباحكم وخسائركم، شكراً من أجل أصدقائكم ومن أجل مبغضيكم، لماذا لا تصبح حياتكم كحياة الملائكة نشيد شكر لله متواصل، وأنتم تعلمون أن كل شيء يأتيكم من عنده.

ضمّوا على الأقل شكركم الى شكر المسيح في القداس، لأن ما يقدم في القداس من الشكر هو ذو قيمة غير متناهية.

الفصل الثالث عشر

لماذا يجب على أكبر الخطاة أن يحضروا القداس

(ج) لأن القداس هو ذبيحة استغفار واستعطاف

1 لعل واحداً يقول : ((يا أبت، ان حضور القداس لا يفيدني شيئاً. فلست اليوم في حال تمكنني من حضوره، لأني قد أهملت واجباتي، منذ أشهر وسنين، وعلى ضميري أحمال من الخطايا الثقيلة الكثيرة. لا، لست الآن مستعداً، وأرجو أن أكون يوماً آخر أحسن حالاً.

نعم، يا ابني، يمكن أن تكون كلك خطايا، وأنك لا تقدر أن تتقدم من المائدة المقدسة، وربما كنت غير مستعد للاعتراف، لأنك لا تكاد تتذكر خطاياك أو تقدر أن تندم عليها. فلا بد لك من الوقت ومن نعمة الله. ولكنك من أجل هذه الأسباب جميعها، ينبغي أن تذهب الى القداس.

فلنصغ الى صوته تعالى يخاطبنا بلسان الكنيسة والمجامع المسكونية :

(1) ((ان القداس يقدّم من أجل الخطايا، والقصاصات المرتبة عليها ومن أجل التكفير، واحتياجات المؤمنين الأخرى)). ولهذا فمهما كانت خطاياك جسيمة، فواسطة الحصول على نعمة التوبة هي في أن تحضر القداس بعواطف التقوى.

(2) (ان تقدمة القداس ترضى الله وتمنح النعمة وموهبة الندامة، ولذلك فإنه تعالى بها يغفر أجسم الذنوب والخطايا)).

لنتأمل كيف ننال بحضور القداس مغفرة الخطايا كما تعلمنا الكنيسة :

أ) ان يسوع المسيح، بموته على الصليب، قد استحق لجميع من يلجئون اليه ما يولي المغفرة من النعم، وقد كفّر التكفير كله عن كل ما اقترف العالم من الخطايا، منذ خطيئة آدم الأولى الى آخر خطيئة يقترفها آخر انسان.

ب) وهذه النعم النابعة من الصليب تخصص بجميع من يقبلونها في القداس وفي الأسرار، مع ما يلزم من الاستعداد.

ج) صحيح، ان ذبيحة القداس لا تمحو الخطايا، لأن المسيح وضع لذلك سر التوبة، غير أن هذه الذبيحة تمنح ما هو أيضاً ضروري، ((تمنح النعمة وموهبة الندامة))، وان لم يكن ذلك فوراً فعلى الأقل، في الوقت المناسب. ((فلنقبل اذن بثقة الى عرش النعمة، لننال رحمة ونجد نعمة للإغاثة في أوانها)) (عبر 4 : 16).

ويمكني أن أضيف مع اللاهوتيين أن الله قد رسم ذبيحة القداس في الكنيسة، خصوصاً، للحصول على ((نعمة التوبة)). وكل واحد تقريباً من آباء الكنيسة لا يتكلم عن القداس، دون أن يؤكد في الوقت نفسه أن القداس لم يرسم إلا لمغفرة الخطايا.

2 وأنتم الذين تعيشون في حال النعمة، يجب عليكم أن تذهبوا كل يوم الى القداس، اذا قدرتم، لتحصلوا على التوبة وعلى مغفرة خطاياكم اليومية – وقد حدد المجمع التريدنتي ((ان قوة ذبيحة الصليب الخلاصية تخصص بمغفرة الخطايا التي نفعلها في كل الأيام)).

3 وهناك غير الخطيئة الواجب علينا أن نحصل على مغفرتها. هناك القصاص الوقتي المرتب على هذه الخطيئة حتى بعد مغفرتها. فما قدمه المسيح على الصليب من التعويض قد كفى ليمحو ما وجب على جميع خطايانا من القصاصات. وهذا التعويض

مخصص في القداس بمن يقدم لأجلهم، على قدر استعدادهم وقدر ما يحكم به المسيح على هذا الاستعداد.

فنحن، على مدى الأيام والأسابيع والسنين، نكدّس علينا ديوناً ثقيلةمن القصاصات الزمنية نكاد، لو فكرنا مرة بثقلها وطول مدتها، أن نحرم الراحة والنوم، طول الأيام، وقد يبلغ منا الخوف حداً يقضي على حياتنا.

ونريد أن ننسى أن أكثر ما ينزل بنا من المحن في هذا العالم : من أمراض، وأحزان، وإخفاق، وفقدان أصحاب وأموال، وغموم من كل نوع، ننسى انها قصاص محتوم على خطايانا. فلو كنا نفي، بدون انقطاع، شيئاً من ديننا بذهابنا الى القداس أو بتقديم قداسات لكي نعوض عما استحقته خطايانا من عقوبات، لنجونا من كثير من هذه المحن الزمنية التي نقاسيها الآن. ان قلة إيماننا تقصّر نظرنا حتى فيما يتعلق بعقوباتنا وآلامنا الشخصية.

وقد يحرمنا الله، فوق ذلك، قصاصاً لخطيئتنا، نعماً كثيرة قوية نجهلها. ولكن متى قدمنا الذبيحة الإلهية، يرضى عنا ويعود فيسكب علينا ما كان تقرر أن يحرمنا منه من النعم، قصاصاً لنا.

الفصل الرابع عشر

لماذا يجب على المحتاجين أن يذهبوا الى القداس؟

(د) القداس هو ذبيحة توسل واستغاثة

1 هبنا لم نخطئ البتة، فالصلاة تبقى دائماً واجباً علينا، من أجل ما نحن فيه من التعلق المطلق بالله في كل شيء، ولكن منذ أن أضفنا الى حال تعلقنا الخطيئة والثورة، أصبحنا ملتزمين أن نبسط أيدينا نحو السماء، توسلاً واستغاثة، اذ يجب علينا الآن أن نطلب العفو والرحمة وكل نعمة أخرى. فلا رجاء لنا بالخلاص بدون صلاة، وبدون صلاة متواصلة.

لعلكم تعترضون عليّ قائلين : ((لا نستحق أن يستجيب الله صلاتنا، فقد كنا خطأة وناكري الجميل. ولا يمر يوم بدون أن نهين الله، فنحن يائسون، مدنسون، وقد فقدنا كل حق برحمة الله)).

كل هذا قد يكون صحيحاً. ولكن ما العمل؟ وما يكون مصيرنا لو أننا فقدنا كل حق باستجابة الله لنا؟ ان رأفة الله هي خلاصنا، وقد وعد أن يستجيب لنا اذا صلينا ((باسم ربنا يسوع المسيح)).

فيسوع المسيح، بكونه كاهن البشر، ((قد قرّب من أجلنا، أيام بشريته، تضرعات وتوسلات، بصراخ شديد ودموع، فاستجيب له بسبب احترامه)) (عبر 5 : 7). والآن وهو في السماء كما هو في وجوده السرّي في الهيكل، ((قادر أن يخلص على الدوام الذين يتقربون به الى الله، اذ هو حي كل حين ليشفع فيهم)) (عبر 7 : 25).

لا شك أن يسوع المسيح يصلي هو نفسه في القداس من أجل من يشتركون في الذبيحة، وبصفته كاهنهم، ولا شك أن صلاته مستجابة كل حين. فهو في القداس محامينا. ((ان لنا محامياً عند الآب يسوع المسيح البار)) يقدم توسلاتنا الوضيعة، جاعلاً إياها صلاته بحسب جودتها وصلاحها. فأي ثقة لا يلهمنا اهتمامه بنا! واي حب للقداس! وأي رغبة حارة في أن نحضره كل يوم، وأن نقدمه فننال من الله ما نحن بحاجة اليه!

2 والآن ما ينبغي أن تطلبوا في صلواتكم؟ - كل ما تريدون بحيث يؤول الى مجد الله والى خلاصكم الشخصي.

1) اطلبوا نعمة المقاومة لشهواتكم، وخصوصاً تلك التي هي أصل تجربتكم. إنكم تعلمون ما هي.

2) اطلبوا ما أنتم في احتياج خاص اليه من الفضائل. اطلبوا زيادة الإيمان، والرجاء والمحبة، والنور حتى تعرفوا إرادة الله وتتمموها.

3) اطلبوا أعظم حب بنوي للآب، اطلبوا توجعاً أشد لآلام يسوع المسيح، وأن تفتكروا غالباً في حضور الروح القدس وتحبوه حباً شديداً.

4) اطلبوا نعم الله للبابا، ولأسقفكم، اطلبوا ازدياد عدد الإكليرس والرهبان والراهبات. فقد أوصانا ربنا خاصة أن نطلب ((أن يرسل فعلة لكرم الآب))، صلوا من أجل الدعوات وشجعوها.

5) صلوا لأجل اتحاد المسيحيين.

6) اطلبوا نعماً غزيرة لهداية النفوس، وكرروا : ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك.

7) اطلبوا نجاح مشاريعكم وأن تؤول في نهايتها الى مجد الله.

8) اطلبوا الصحة، وكل عطايا الطبيعة، والنعمة التي تعينكم على أن تحسنوا أعمالكم لمجده تعالى حتى موتكم.

9) اطلبوا خلاص النفوس المعذبة في المطهر.

10) اطلبوا النعم والخيرات لأصدقائكم.

11) اطلبوا النعمة العظمى، نعمة الثبات الأخير والميتة الصالحة.

يقول الكردينال بونا في مقالته عن القداس : لسنا على يقين من نوال ما نطلبه. فقد لا يكون مطابقاً لإرادة ربنا، ولكن اذا صلينا جيداً، فنحن على يقين من أننا ننال دائماً ما فيه منفعتنا. ولذلك ينبغي ان نذهب دائماً الى القداس، واثقين بنتيجة صلواتنا، معتقدين أنها تكون مستجابة في كل حين، بنوع ما أو بآخر، ما لم نضع نحن مانعاً دون فعلها.

الفصل الخامس عشر

لماذا تتم ذبيحة القداس بصورة طعام؟

1 لقد أراد الله ربنا أن تقدم الذبيحة الالهية في القداس بصورة طعام، لكي نستطيع أن نتحد بها، عندما نقبلها فينا بالتناول المقدس.

فما التناول إلا قبول الذبيحة التي وفت ديوننا وفدتنا. ولنا أن نخصصها بنا، ونشترك بما تقوم به من أفعال العبادة، والشكر والتكفير والاستعطاف وتكون هذه الأفعال بها ذات قيمة غير متناهية. والله يصرّح بأنها لنا، في قوله : ((يا ابني، كل ما لي هو لك)) (لوقا 15).

فأنتم ترون ما في حضور القداس من الغنى الروحي، ولا سيما اذا أضفتم الى حضوره تناول السر المقدس.

وترون أيضاً ما يحمل النفوس التقية على أن تفضل التناول وقت القداس على التناول خارجاً عنه.

2 الاشتراك في القداس والتناول هما أشد أنواع الاقتراب من الحياة الالهية على الأرض. فالاتحاد بالذبيحة الالهية، والاندماج بها وتقدمتنا بيدي المسيح حبرنا الأعظم للثالوث المعبود، ذلك أعظم شرف، وأسمى تخصص يمكنا أن نشتهيه في الدنيا. ذلك ذوق روحاني لا يزال محجوباً عن حواسنا بستار السرّ، ولكنه ذوق حقيقي سابق لحياة السماء، فسوف تكون السماء مناولة أبدية، ترافقها الأفراح اللذيذة، وتجلياً يختطفنا كلياً في الله بالمسيح ربنا.

ويمكنكم منذ الآن أن تسمعوا المخلص يقول لكم : ((اثبتوا في وأنا فيكم))، وتسمعوا القديس بطرس : ((صرتم شركاء في الطبيعة الالهية))، والقديس بولس : ((أنتم مع المسيح والآب واحد))، والمجمع المسكوني التريدنتي : ((نحصل بالتناول على الحياة الروحية، وعلى الصحة، والقوة اللازمة، لكي نستطيع أن نعبر هذه الأرض الكئيبة، أرض المنفى، ونبلغ الى الوطن السماوي حيث نتمم هذا التناول بلا حجاب)) (جلسة 13 ف 8).

3 وكثيراً ما يلمّح القديس أوغسطينوس ويكرر الكلام عن فكرة أخرى تتصل أشد اتصال بما نقول عن القداس فيقول : ((ان الكنيسة تتعلم بالذبيحة الالهية أن تقدم ذاتها ذبيحة بالرب)).

وبما أن المسيح هو رأس الجسد، والكنيسة هي جسد هذا الرأس، هكذا تتقدم الكنيسة في الذبيحة اليومية وهي تقدّم المسيح ذبيحة يومية.

ان حياة الكنيسة على الأرض هي حياة تضحية دائمة، وحياة كل مسيحي يجب أن تكون كذلك. فأين نجد روح التضحية هذه؟ اذا بحثنا عنها في نفوسنا، فلن نجدها، واذا التفتنا حولنا، في العالم، وفي المجتمع، واذا درسنا الطبيعة البشرية، فلن نجدها أيضاً في الطبيعة البشرية، فلماذا نرى روح التضحية هذا مخالفاً للطبيعة؟

إنا في الذبيحة اليومية ((نستطيع أن نتعلم كيف نتقدم نحن ذبيحة)). ونصبح واحداً مع هذه الذبيحة باشتراكنا فيها بالتناول السري أو الروحي.

يقول القديس توما : ((من يقدم الذبيحة المقدسة يجب أن يشترك في الذبيحة. لأن الذبيحة الخارجية المقدمة هي علامة الذبيحة الداخلية التي نقدم بها ذاتنا لله. ولذلك، فعندما يشترك أحد في الذبيحة، يعترف بأنه يقدم نفسه ذبيحة داخلية)).

4 ونقدم الذبيحة بصورة طعام، لأنها وليمة حب أخوي. يقول المجمع التريدنني : ((هذه الوليمة هي علامة الوحدة، وختم المحبة، ورمز السلام والوفاق))، بين أعضاء الكنيسة جميعاً.

5 ليت من يهملون الذهاب الى القداس، قصداً، يعلمون ما يخسرون، وكم يخسرون!

لكن افرحوا وابتهجوا أنتم ذوي الإيمان والتقوى، الذين تحضرون دائماً القداس، حتى في الأصبوحات الباردة، المعتمة والممطرة، وتنقصون من ساعات نومكم، وتزعجون أنفسكم، وتتغلبون على صعوباتكم، لقد اخترتم النصيب الأفضل – اخترتم الحياة الروحية، والصحة، والقوة، وتذوّق الفردوس على الأرض، واخترتم الميتة الصالحة والأبدية السعيدة.

الفصل السادس عشر

وجوب حضور القداس

1 كل مسيحي بلغ سن الرشد يجب عليه – تحت الخطأ – أن يحضر القداس أيام الآحاد والاعياد الإلزامية...

2 لكن سبباً كبيراً يمكنه أن يعفي من الخطأ الكبير من لا يحضرون القداس في هذه الأيام المذكورة. والأسباب الكبيرة هي المرض، وبعد المسافة عن الكنيسة، وتتميم بعض الواجبات الضرورية المهمة مما لا يمكن تأجيله. واذا كانت الكنيسة تلزمنا بحضور القداس، فهي لا تفرضه علينا متى أمكن أن يلحقنا من حضوره أضرار جسيمة أو خسارة كبيرة.

3 هذا الإلزام لا يقوم بأن نكون حاضرين وقت الذبيحة فقط أي وقت التقديس، بل أن نحضر القداس كله. والمعروف عموماً أن من كان حاضراً من تقدمة القداس أو من تلاوة الإنجيل فقد تمم الواجب.

غير أنك لا تخلو من الخطأ، اذا أنت لم تحضر القداس من أوله عن تكاسل أو إهمال.

4 قد يستحيل على كثير من العائلات أن يذهب الجميع الى القداس في وقت واحد، فيجب أن يبقى في المنزل شخص أو أكثر للاهتمام بالمرضى، والأطفال، أو لحراسة البيت. ولذلك يحرص رب العائلة أو ربتها ألا يحرم الشخص نفسه من حضور القداس، كل الآحاد. واذا كان في الكنيسة قداسات عدة، تنظم العائلة شأنها بحيث يقدر الجميع أن يحضروا القداس.

ويعتبر الخدام في البيوت المسيحية، كجزء من الأسرة، ويعاملون معاملة أفرادها، فيلتزم الوالدان والأسياد والسيدات أن يرتبوا خدمة المنزل الداخلية، حتى يمكنوا خدامهم من حضور القداس.

5 على الوالدين أكبر مسؤولية، اذا تركوا من بلغ سن الرشد من أولادهم يهملون حضور القداس ليلهوا في الشوارع، فإنهم بتصرفهم هذا يقتلون نفوس أطفالهم، بدلاً من أن يرشدوهم ويخلصوهم، اذ يعوّدونهم أن يعصوا الكنيسة ويحتقروا الأسرار وذبيحة الرب. فيضعفون تأثير الكنيسة، ويهدمون تعليمها، ويطرحون أولادهم في طريق الفساد، ويربون على هذه الحال، داخل بيوتهم، من يشكونهم يوماً أمام منبر الله لينتقم منهم.

نعم، ان يسوع المسيح يحب الأطفال، لا لبرارة سنهم، وحدها ولكن لضعفهم وتعقلهم بغيرهم. فهو ينتقم من الوالدين المذنبين : ((لي النقمة وأنا أجازي))، لأنهم شككوا هؤلاء الصغار وخسّروهم، فأجدر بهؤلاء الوالدين أن يعلق في عنقهم حجر الرحى ويزجوا في أعماق البحر، بدلاً من أن يفسدوا أولادهم ولا يرسلونهم الى حضور القداس.

6 قد يحدث أن تضطروا اضطراراً شديداً ألا تذهبوا الى القداس إما لالتزامكم البقاء في المنزل لتتميم واجب وإما للقيام بسفر ضروري.

فما يجب أن تفعلوا في هذه الأحوال؟

ان واجب تقديس يوم الأحد لا يزال باقياً، ولا يمكنكم أن تقوموا به كما هو مفروض. فيمكنكم حينئذ أن تتموه بطريقة أخرى، مثلاً : صلّوا وحدكم، طالعوا بعض مطالعات روحية، واتحدوا بالله. فكثيرون من المسيحيين، في مثل هذه الظروف، يقرءون بانتباه صلوات القداس، متّحدين بالقداس الذي يقدم في أقرب كنيسة منهم. فيحضرون القداس

بالروح. ان الله يرتضي بالرغبات الصالحة. ومتى كنتم في مثل هذه المواقف، يمكنكم أن تستفيدوا من قراءة الفصل العشرين الآتي من هذا الكتاب : الاتحاد بالذبيحة الدائمة.

وكثيرون، متى اضطروا أن يلزموا المنزل لمرض أو لأمر آخر، يركعون أو يجلسون أمام الصليب ويتجهون جهة الكنيسة القريبة، وهم يقولون ان المسافة في نظر الله ليست شيئاً، ويسمعون القداس على هذه الطريقة بالروح، متحدين بربنا كما لو كانوا راكعين أمام الهيكل.

واذا التزمتم أن تحرسوا الأطفال في المنزل، فلا تكتفوا بأن تقولوا لهم : يجب أن تصلوا، بل افحصوا هل هم يفعلون. ثم ساعدوهم، (فتساعدوا نفوسهم) بأن تتلوا معهم بعض الصلوات، وتقرءوا فصلاً في أحد الكتب الروحية، متذكرين قول الرب : ((حيثما يجتمع اثنان باسمي، أكن أنا بينهم)). فإذا عوّدتم أطفالكم منذ صغرهم هذه الممارسات فلن ينسوها طول عمرهم.

7 روى القديس ليونار دي بورموريس قصة ثلاثة تجار كانوا في بلدة جوبيو. فذهبوا يوماً الى سوق جسترنو، وهي مدينة على مسافة بضعة أميال، وقضوا الليل فيها. وكان الغد يوم أحد، فعرض اثنان منهم أن ينهضوا باكراً ويعودوا الى جوبيو، فقال الثالث : أنا مستعد ان أصبحكما، اذا شئتما أن تتأخرا قليلاً، ونبدأ بسماع القداس، لأن اليوم يوم أحد. واذا لم نتمكن من الوصول الى البلد، ففي الطريق فنادق كثيرة يمكنا أن نقضي الليل فيها. فرفض رفيقاه أن يستمعا اليه. وتركاه وحده، وسافرا باكراً على فرسيهما. ووصلا في منتصف النهار الى نهر صغير قد تعاظمت مياهه كثيراً، لما كان قد تساقط من المطر ليلاً، حتى كاد السيل يقتلع الجسر الخشبي الذي فوقه. وكان على المسافرين أن يعبرا عليه، فتقدما، حتى بلغا وسطه، واذا بأخشابه المسوّسة تتقصف من تحتهما، ويهويان مع فرسيهما وأمتعتهما في السيل الجارف، ففقدا، كما يقول القديس ليونار، ((حياتهما، ومالهما وتجارتهما وربما قد خسرا أيضاً نفسيهما)).

وبعد قليل من الزمن وصل التاجر الثالث الى النهر، وكانت مياه السيل في هذه المدة قد دفعت بجثتي الشقيين الى البر. فعرف بملء الخوف والارتعاد رفيقيه اللذين احتقرا وصية حضور القداس يوم الأحد، ودخلا الأبدية على هذه الحال.

الفصل السابع عشر

القداس الكبير وقداس الرعية

1 رتبت الكنيسة القداس الكبير لكي يتمجد الله به أعظم تمجيد، وما زيد فيه من الطقوس لم يقصد به إعجاب الحاضرين أو إمتاعهم، بل تكريم الله، ملك السماء والأرض أعظم تكريم.

لذلك، لا يحسن بكم أن تكتفوا بحضور قداس قصير، يوم الأحد، ان استطعتم أن تحضروا القداس الكبير.

ففي القداس الكبير، يقدم ربنا نفسه ذبيحة، بجلال واحتفال ويعقد فيه مجلسه كاملاً، على الأرض، وتقوم الكنيسة بكل ما تستطيع لتمجيد مجيئه، ولا شك أن عدد من يحضرون القداس باحترام وعبادة مما يساهم في عظمة الاحتفال ورونقه.

فهنا داع رصين لحضور القداس الكبير، وهو تمجيد ربنا وإلهنا يسوع المسيح أعظم تمجيد. أما أن تقول : أنا لا أحب الموسيقى والاحتفالات، وترى القداس طويلاً، فمعناه أنك لا تهتم بأن تكرم ربنا كما يرغب هو من طرق التكريمم والاحترام.

2 وهناك سبب آخر يدعوك للذهاب الى القداس الكبير لأنه قداس الرعية عادة.

وقداس الرعية هو هذا القداس الاحتفالي الذي يقام في كنيسة الرعية، أيام الآحاد والأعياد، وتلقى فيه العظة والتنبيهات الرسمية.

اما الذين يرون الوقت طويلاً ويريدون أن يقتصروا على قداس قصير، فليسمعوا ما يقول القديس شارل : ((من هم هؤلاء المسيحيون الذين يشتكون من طول الصلاة ويبتعدون عن الكنيسة وعن سماع المواعظ؟ لا شك أنهم لم يتعلموا ذلك من مريم العذراء، ولا من يسوع، ولا من يوسف. ان الذين يحبون الله حقاً لا يشتكون من طول تكريمه.

((وإني أذكر حادثاً ينبغي أن يخجلهم : ان عدد الكهنة في القرى التي زرتها قليل جداً، وقد لاحظت أن المؤمنين في أماكن كثيرة، حيث لا يوجد إلا كاهن واحد، لا يريدون أن يتناولوا شيئاً من الطعام قبل أن يحتفل بالقداس أكبر احتفال في كنيستهم. وهنا في المدينة، أين الكنائس التي تقام فيها قداسات كبيرة؟ وأكثر الناس يسرعون لكي يحضروا قداساً قصيراً ليكونوا طول النهار أحراراً ويقضوه في اللهو والشراب)).

ان ربنا بقى معلقاً على الصليب، ثلاث ساعات، وأنتم ترفضون أن تخصصوا نصف أو ثلث هذا الوقت لحضور القداس...

الفصل الثامن عشر

الحشمة في الملابس

لا يليق بالنساء أن يذهبن الى القداس متبرجات بملابس باهرة وألوان زاهية. بل ينبغي أن يمضين الى القداس كما لو كنّ على الجلجلة، يوم صلب يسوع، فذبيحة القداس هي ذبيحة الجلجلة نفسها، والكاهن هو نفسه. كونوا على يقين أن ربنا يراقب كل ما نعمل لمجده، فإذا اكتسينا ملابس محشمة بسيطة حباً له، أعطانا أجراً ومجداً لا يقدر العالم أن يتصورهما.

وقد ألح الأحبار الأعظمون دائماً على ضرورة الاحتشام في الملبس. فالمرأة أية كانت، أميرة أم ملكة، لا يمكن أن تحضر قداس البابا أو القداس المحتفل به أمامه، ما لم تكن بملابس سوداء. وهذه العادة جارية في إسبانيا وفي جميع البلدان التي كانت متعلقة بها، بحيث لاتجسر امرأة أن تذهب الى القداس، ما لم تغطّ رأسها وكتفيها بملاءة علامة الاحتشام.

يقول القديس بولس في رسالته الى تيموثاوس : ((ولتكن النساء بزينة لائقة. متزينات على مقتضى الحشمة والتعقل، لا بتجعيد الشعر أو بالذهب، والآلئ، أو الثياب الكثيرة الثمن)) (1 تيمو 4 : 9).

وفي رسالته الى أهل كورنتس، عند كلامه عن القداس يقول : ((أي امرأة تصلي، ورأسها مكشوف، فإنها تشين رأسها، لأنها إنما تكون كما لو حلق شعرها. لأن المرأة ان لم تتغطّ فليقص شعرها وإن كان عيباً على المرأة أن يقص شعرها أو يحلق فلتتغطّ)) (كورنتس 11 : 5).

وأذاع القديس شارل وأساقفة إقليم ميلان شرائع قاسية خاصة باحتشام النساء في الكنيسة. فأعلنوا في مجمعهم الإقليمي أن من تأتي الى القداس من النساء مكشوفة الرأس، تسقط في الحرم.

وفي حياة القديسة أليصابات الهنغارية ((أنها لما كان زوجها الملك يجبرها أن تظهر في القداس بملابس زاهية تناسب مقامها، كانت تشعر أنها لا تستحق أن تحضر الذبيحة المقدسة، بهذه الزينة الملكية، وكانت تتخلى ما أمكنها من حليها حتى من قفازيها، وتستر يديها بمعطفها وتظل مستغرقة في صلاتها، وكان ربنا راضياً كل الرضى من بساطتها وتواضعها، فأظهر لها يوماً رضاه بأن أحاطها بنور باهر رآه جميع الحاضرين)).

ومما يؤخذ على تلك الزينات الفاخرة المخالفة لتعليم القديس بولس ولتعليم الكنيسة أنها قد تكون لها عواقب وخيمة : لقد دفعت مئات وألوفاً من وضعاء العمال والعاملات أن يمتنعوا عن حضور القداس، خجلاً من أن يظهروا بثيابهم الحقيرة. وهكذا يستطيع زي خليع أن يطرد الفقراء من الكنيسة التي هي بيتهم. فعلى كل امرأة أن تسأل نفسها : هل تتفق زينتها وهيئتها في الكنيسة، وروح التوبة والتواضع، وما تقتضيه خطاياها ويتطلبه واجب التكفير عنها؟

الفصل التاسع عشر

في حضور القداس يومياً

1 اذا كان حضوركم القداس يومياً ممكناً، فلا تحرموا نفوسكم من ثمرته أبداً. إنكم تسمعون باكتشافات علمية مدهشة، ولكن مهما كان لما تحدثه هذه الاكتشافات من تأثير وانقلاب في المجتمعات، فإنه لا يوازي ما يحدث في أحكامنا وأفهامنا من ذهول وانقلاب، يوم نكتشف ما يفعل حضور القداس في نفس تقية.

لقد رأيتم أنكم بالذبيحة الإلهية، وحدها، تستطيعون أن تقدموا لله عبادة كاملة وشكراً كاملاً. وهاتان الغايتان من القداس هما من حق الثالوث خاصة. فأي بركة في أن نسهم، كل يوم، بما يقدمه للثالوث الأقدس، من العبادة والشكر، حبرنا الأعظم يسوع المسيح.

يقول القديس شرل بورومي، في قانون حياة الشعب : ((اسمعوا القداس كل يوم، ان كنتم قادرين)). والقديس ألفونس ليغوري وفيليب دي نيرى كانا يجبران كل معترفيهم أن يحضروا القداس يومياً. تلك كانت عادة القديسين.

((في البلاد المسيحية حقاً، يذهب الجميع، تقريباً، الى القداس يومياً، كما كانت الحال في بلاد التيرول المسيحية العامرة، فقل من لا يحضر القداس يومياً، من الفلاحين. فقد رأيت أنا نفسي كنائس قروية فسيحة ممتلية من المصلين قبل طلوع النهار، ولما سألتهم عن العيد الذي يحتفلون به، قالوا لي مستغربين، انه يوم من أيام الأسبوع الاعتيادية، وان أبناء الرعية جميعاً متعودون أن يحضروا القداس كل صباح، قبل أن يمضوا الى أشغالهم)).

فالقداس في البلاد العامرة بالإيمان هو جزء من نظام النهار : كالطعام، والشغل والراحة.

2 كم من ألوف بيننا، لو كانوا يقدرون الذبيحة الالهية قدرها، لاستطاعوا أن يحضروها، كل الأيام، أو على الأقل بعض أيام الأسبوع! فكثيرون، رغم ارتباطهم بمشاغل ومتاجر، يفرضون على أنفسهم أن يسمعوا القداس كل صباح. ولكن، كم بين الطبقات المرفهة والطبقات الكادحة من يسهل عليهم، لو أرادوا، أن يحضروا القداس، غالب أيام الأسبوع، ولكنهم لا يفكرون في ذلك البتة.

فما رأيكم في هذا أنتم الذين تقرءون هذه الصفحات؟ أما تعتقدون أن موتكم يكون أهنأ، لو كنتم تحضرون القداس مرات أكثر؟ أما تسير أشغالكم الزمنية سيراً أفضل، لو كنتم تتشدّدون وتنشطون كل يوم بما يمنحكم حضور القداس اليومي من النعم؟ لن تجدوا وسيلة للحصول على الثبات الأخير والميتة الصالحة أضمن من حضور القداس.

3 كان من عادة شخص (قد توفى) أن يقول : ان القداس كان ميناء نجاته. فكان يستعد في مدة ذاك النصف الساعة القصير لواجهة الأتعاب، والهموم، ولما يلاقيه كل يوم في أعمال وظيفته. وكان يحب أن يُحرم فطوره ولا يحرم قداسه.

وردت في حياة يوحنا الرحيم، بطريرك الإسكندرية، قصة اثنين من الصناع كانا قد تعلما في مدرسة واحدة، وتربيا كلاهما تربية واحدة. فتزوج أحدهما، ورزق عدداً كبيراً من الأولاد كان يعولهم مع آخرين من أولاد أخيه، وكان سعيداً موفقاً في جميع

أعماله، وكان قادراً أن يقوم بحاجاتهم اليومية، ويوفر لهم كل سنة مقداراً من المال – أما الصانع الآخر فكان دائماً في ارتباك، لم يستطع يوماً أن يقوم باحتياجاته، وكان كل شيء ضده، فالتقى مرة برفيق حياته السعيد، وسأله ما كان يصنع حتى ينجح في جميع أموره، في حين أنه هو لم يوفق في حياته الى عمل لائق، فقال له رفيقه : ((غداً صباحاً أجئ وأريك سر نجاحي)). وجاء في الغد باكراً وطلب منه أن يرافقه الى الكنيسة. فاستغرب الصانع المسكين، ثم نجدد العمل نفسه في اليوم الثاني وما بعده. فحينئذ، قال المسكين لصاحبه : ((ان يكن كل ما يجب أن أفعله لأخرج من البؤس هو في أن أذهب الى القداس، فلا حاجة أن تعود بعد اليوم، فإني أعرف طريق الكنيسة)). فقال له صاحبه السعيد : هذا كل ما يجب أن تصنعه. فأنا لا أذهب يوماً الى أعمالي، قبل أن أحضر القداس، أولاً، وأجتهد أن أسلك بحسب كلام الإنجيل : ((اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره والباقي جميعه يُعطى لكم)) (متى 6 : 33).

فتبع الصانع الفقير نصيحة رفيقه القديم، ولم يلبث أن باركه الله ومنحه، منذ هذه الحياة، ما لم يعرفه من قبل، من النجاح والرخاء.

هذه نماذج لبركات زمنية سببها حضور القداس. ولكن ان لم يكن مثل هذه البركات دائماً ثمرة حضور الذبيحة المقدسة، فإن هناك بركات أخرى أبدية لا توصف هي ثمرتها الطبيعية، ولا يمكن تقديرها إلا يوم تعاينونها في نور المجد الأبدي.

فشكراً لله، اذ جعل حولنا أمثلة كثيرة، لأشخاص مثقلين بالمشاغل يذهبون يومياً الى القداس، وكلهم يشهدون بأنهم ربحوا وليس بينهم من يقول انه خسر.

فمن استطاع أن يحضر القداس كل يوم من أيام حياته واحتقر قصداً هذا الانعام الفائق، دلّ على حماقة وغباوة تحير العقل طول الأبد.

الفصل العشرون

الاتحاد بالذبيحة الدائمة

جاء في نبوة ملاخي : ((من مشرق الشمس الى مغربها وفي كل مكان، تقرّب لاسمي تقدمة طاهرة)) (ملاخي 1 : 11).

هذه النبوءة تتحقق بالقداس في الكنيسة المقدسة ففيها وحدها، سواء أنظرتم الى طريقة التقدمة أم الى الذبيحة المقدّسة، التقدمة الطاهرة والذبيحة المقدسة في كل مكان.

ان ذبيحة القداس لا تنقطع عن وجه الأرض أبداً، بل تستمر، ولا تبرح تتقدم، نهار ليل، حتى أصبحت الشمس دليلاً عليها، ومبشرة بقدوم الرب. فلا تكاد أشعتها تضيء أفقاً من الآفاق، إلا نهض الكهنة لتقدمة الذبيحة. وكلما ارتفعت، أيقظت سكان الدنيا، تباعاً، من رقادهم، وأخذت الكنيسة تصلي وتوالي تقدمة القداس الطاهر من أجل غاياتها الأربع.

وليس الزمان، ولا المكان والمسافة سوى أعراض يمكنا التفلّت منها، فهي أعجز من أن تقطع اتحاد نفسنا الروحاني بحبرنا الأعظم يسوع المسيح وبالذبيحة الإلهية.
فنستطيع أن نرافقها في مسيرها في أرجاء الدنيا كلها. ولا شيء يمنع القلب المحب من السفر، ولا شيء يمنع النفس المختلية بالله من قطع المسافات مهما بعدت، بلا تعب ولا عناء. وتصبح المخيلة طوع النفس المحبة الأمينة، تقدم لها أجنحة تطير بها الى مختلف الأقطار، لكي تنحني أمام كل مذبح يقدم عليه قداس، وتؤدي أفعال العبادة والشكر.

أتقول إنك لا تقدر أن تذهب الى القداس؟

ان الوقت لا يزال ليلاً، وانت مستيقظ ووحيد، طوال ساعات الليل. وربما كنت مريضاً، أو متعباً من كثرة الهواجس وطول الحياة. فجسمك لا يجد راحة، وذهنك وقلبك كليلان. فأحى إيمانك، صابراً، وسلم أمرك الى الله، ثم طر بفكرك الى المذابح التي يقام القداس عليها. فالذبيحة الالهية تقرّب في كل ساعة من ساعات النهار والليل.

فهناك أقطار يقام فيها القداس في كنائس فخمة، غنية وفنية، والمؤمنون فيها كثيرون يدخلون ويخرجون منذ الفجر الى الظهيرة، والقداسات تتوالى، على مذابح فاخرة، في بازيليك وكاتدرائيات، أو في كنائس عادية ومعابد خاصة، في قرى هادئة، في الجبال، ووسط سهول الزيتون وكروم العنب، أو في مدن تغصّ بالسكان، وفي جميعها سموع تنار، وأجراس تقرع تدعو الجميع الى حضور القداس، ولا تتوقف إلا حوالي الظهر.

وتقدم الذبيحة النقية في بلاد أخرى في معابد منعزلة، وكنائس متواضعة، كل شيء فيها يدل على الفقر والاضطهاد : والمؤمنون هناك قليلون ومشتتون.

وفي البلاد القطبية، هناك المرسلون تحت الثلوج، يعفون مما ليس جوهرياً في طقس القداس، فيقدمون الذبيحة، بين جماعة الإسكيمو على مذبح منحوت من الجليد.

وفي مروج أمريكا يعيش ((الثوب الأسود)) (لقب المرسلين) بين قبائل الهنود الرحل، يقدّم القداس، تحت قبة السماء، بين الهنود، وهم يصلون حوله بغاية الخشوع.

وفي الأقاليم الأستوائية الحارة، أقام المرسلون الإسبانيون، والبرتغاليون والإيطاليون ألوف المذابح، يقدمون عليها ذبيحة المخلص الإلهي حيث يعبده السودان، والهنود، وأهل مالى، وألوف من الشعوب المختلفة، وهو يعرفهم جميعهم بأسمائهم، ويدعوهم الى الخلاص الأبدي.

وأبعد من هؤلاء اليابانيون، والصينيون، والتتر، وسكان أستراليا، ونيوزيلندة وجزائر البحار، وكل منهم يتجه الى الكنيسة في ساعات تختلف عن الأخرى.

وفي العالم كثير من النفوس التقية ترغب، عن عبادة خاصة، أن تسمع القداس الدائم، أن تشترك في كل قداس، فتسافر بالفكر والروح، من قطر الى قطر، وتزور أغنى الكنائس وأفقر المعابد، وتعبد الرب، حيث لا يعبده أحد.

فأنت قادر ان كنت في دارك او كنت غارقاً في أشغالك – إن شئت – أن تتفلّت من الزمان والمكان والمسافة، وتنحني بالفكر، أمام هياكل مقدسة في أقاصي الأرض. وما أسعدك، إن كانت أفكارك تحملك هكذا الى القداس! فوجّه قلبك، وأنت ماض في عملك، الى كنيسة يقام فيها القداس وقل : ((يا يسوع مخلصي، اني أريد ان أحضر، ولو بالفكر، الذبيحة الالهية، وأشرك نيتي بجميع القداسات التي تقدم اليوم في الدنيا كلها)).

فهذا التعبد للقداس الدائم هو جزء من رسالة الصلاة، وتوجد صور صغيرة تبيّن البلدان، وموعد القداس، في كل ساعة من ساعات النهار والليل.

وإليك موجزاً لذلك :

الاحتفال بالقداس يكون بين الفجر والظهر (وقد سوّغ المجمع الفاتيكاني تلاوته في المساء وفي أية ساعة من النهار عند الضرورة).

(1) من الساعة 5 صباحاً الى العاشرة في فلسطين، وإثيوبيا، ومصر ولبنان آسيا الصغرى.

(2) من الساعة السابعة الى الثانية عشرة، على ألوف المذابح في بلاد أوربا وغربي أفريقيا.

(3) ومن الساعة 12 الى المساء، في الأرجاء الواسعة من أمريكا الشمالية والجنوبية.

(4) ومن الساعة 6 الى 2 صباحاً، في أستراليا، ونيوزيلاندة، وبولنديزي، واليابان، وكوريا، والصين، والتونكين، وبرمانيا.

(5) ومن نصف الليل الى الفجر في بلاد الهند.

فهذه الهياكل التي يتقدم عليها ربنا ذبيحة خلاصية هي أبهى من نجوم السماء، وقد شاء الله أن تنتشر على هذه أرض الظلمة والخطيئة، رحمة منه بالبشر. فإنه تعالى، كما يقول معلمو الكنيسة والقديسون، يشفق على الأرض بسبب هذه الذبيحة اليومية النقية من كل عيب.

((فمن مشرق الأرض الى مغربها، أسمي عظيم في الأمم، وفي كل مكان تقرب لاسمي تقدمة طاهرة، لأن اسمي عظيم في الأمم، قال رب الجنود)) (ملاخي 1 : 11).

الفصل الحادي والعشرون

فائدة تقديم قداسات عن أنفس الموتى

1 كلما كان مقدمو الذبيحة مرضيين لله، أي كلما كانوا قديسين، (ولست أتكلم هنا عن الكاهن وحده بل عن المؤمنين الذين يشتركون معه في تقدمة الذبيحة) كان أجرهم أعظم، وكان الله أقرب الى استجابة صلواتهم. ولذلك يؤكد البابا إسكندر قائلاً : ((كلما كان الكاهن قديساً، كان أكثر استمطاراً للنعم على المؤمنين الذين يحضرون قداسه)).

وتعلمنا الكنيسة : ((أن ذبيحة القداس لا يمكن أن ينقص قيمتها عدم أهلية الكاهن ولا رداءة من يقدمونها)).

واذا نظرنا الى الذبيحة في ذاتها، نرى أن ثمرتها مرتبة، دون التفات الى استحقاق مقدمها المنظور او عدم استحقاقه. لأن ثمرة القداس وتوزيعها مختص بالكاهن الأصلي والمضحي الأول، يسوع المسيح.

2 يقول اللاهوتيون : ان للذبيحة، بطبيعتها وبوضعها ما يسمى ثمرة عامة، وثمرة خاصة، وثمرة متوسطة. فالثمرة العامة هي للكنيسة جمعاء، والثمرة الخاصة جرة يعينها الكاهن بحسب نيته. وكل كاهن عند تلاوته القداس يجب أن تكون عنده نية خاصة يوجه بها ثمرة القداس الى نية معينة.

فالانتفاع بهذه الثمرة الخاصة هو إنعام كبير يولي من يناله مغفرة ما هو مرتب على خطاياه المغفورة من العقوبات الزمنية، ويوليه غزارة جديدة من النعم وهبات ثمينة يستفيدها من كنز آلام المسيح الإلهية.

كان ويكليف الضال يقول : ان الصلوات الخاصة وتوجيه استحقاق الذبيحة الخاص لا ينفعان النفس أكثر من الصلوات العامة، فحرمت الكنيسة ضلاله هذا. وقد اعتقدت دائماً أن الصلوات الخاصة المقدمة لغاية خاصة هي ذات فاعلية قوية.

عندما يقدم الكاهن القداس على نية خاصة، علينا أن نؤمن أن ما يعمله رسمياً يثبته معلمه الكاهن الأكبر، إلا اذا كانت هذه النية الخاصة تحتمل في ذاتها شيئاً ناقصاً أو غير لائق.

3 وأكبر جميل يمكن الكاهن أن يوليكم اياه، بعد تقدمة الذبيحة من أجلكم، ان يذكركم في القداس. فذلك شرف وخير روحي عظيم أن يسميكم رسمياً في الأسرار المقدسة، فكأنه يقدمكم، خاصة، ويذكر كل متاعبكم لربنا يسوع المسيح وللثالوث الأقدس.

4 لقد كانت الذبائح في العهد القديم كالعهد الجديد تقدّم على نيات خاصة أو من أجل أشخاص معينين.

وقُدمت الذبائح أيضاً من أجل الأموات، وهذا أكبر دليل على ما يمكن أن نظهره من المحبة والعطف نحو النفوس المنتقلة من هذه الحياة بأن نوجّه اليها استحقاقات الآلام بتقديم القداسات من أجلها، وهي تحفظ الجميل لمن يحسنون إليها، وتتشفع فيهم أمام الله.

لما كان القديس بطرس دميان قاصراً، وُضع تحت حراسة أحد إخوته، فكان هذا الأخ يسيء معاملته، ويحرمه من الطعام، ويقسو عليه كأنه عبد لا أخ له. فحدث يوماً أن حصل بطرس على مقدار من المال يمكنه به أن يسدّ جوعه وينجو من بؤسه، لكنه لم يفعل وفضل أن يسلم ما معه الى كاهن وطلب منه أن يقدم قداسات عن نفس والده. وهو يروي أنه من تلك اللحظة قد شعر بشكران النفس التي أسعفها، اذ خرج حالاً مما كان فيه من الضيق والمشقة، ثم أصبح قديساً عظيماً.

5 أما القديس ليونار دي بورموريس، فإنه ينصحك بأن تقدم قداسات من أجل نفسك، مدة حياتك، فذلك أفضل من أن تبقيها الى ما بعد وفاتك. وهذا القديس يعتقد أن قداساً واحداً يقدم عنا مدة حياتنا هو أنفع لنفسنا من قداسات كثيرة تقدم عنا بعد موتنا. فتلك عادة جارية عند الشعب الارلندي التقي، وقد جرت مثلاً، فيقال : ((قداس قبل الموت خير من اثنين بعده)).

وهذا صحيح، ومعتدل وحسن أن ندفع أكثر ما نستطيع من ديوننا، ما دمنا أحياء وقادرين، بدلاً من أن نؤجل هذه القداسات الى ما بعد الموت لنفي ما تراكم علينا من الديون طول الحياة. إن البعض يستخفون بالمطهر، ولكن نفوساً لم تقف فيه غير دقائق حسبت أنها بقيت فيه أجيالاً، لشدة ما قاست فيه من ألوان العذاب.

ويروي القديس ليونار أن تاجراً من جنوى كان غنياً ديناً ودنيا قد سبب عند موته كثيراً من الشكوك، لأن لم يترك شيئاً لإقامة قداسات عن نفسه. ولكن بعد قليل، حل الإعجاب محل الشكوك، حين ظهر أنه كان قد قدّم ألوفاً من القداسات عن نفسه مدة حياته.

وما نقوله عن فائدة تقدمة القداسات عنا، مدة حياتنا، نقوله عن الأعمال الصالحة التي نباشرها، مدة وجودنا على الأرض، فقوموا بالتضحيات واحرموا نفوسكم، لكي تعاونوا على نشر الإيمان وعلى التربية الدينية، وتأسيس المشاريع الخيرية، وإسعاف الفقراء، فهذا أنفع لكم من توفير المال لإقامة هذه المشاريع الخيرية ولتقديم القداسات عنكم، بعد وفاتكم.

الفصل الثاني والعشرون

خادم القداس

يقول اللاهوتيون : كلما زاد اشتراكنا في ذبيحة القداس، زاد ربحنا منها. فالذين يخدمون القداس هم أوفر حظاً من سامعيه، لأن خدمة القداس أقرب ما تكون من تقدمة الذبيحة.

فمتى خدمت القداس بإيمان وعبادة، نلت نعماً أكثر وربحت أجراً أوفر مما لو سمعته فقط.

ومن يخدم القداس، يكن وسط الملائكة. والملائكة يغارون منه، لأنه يقوم بوظيفة لا يستطيعون أن يقوموا بها إلا بالشوق. وهم ينظرون إلى خادم القداس نظرهم الى واحد منهم، اذ قد صار وهو بشر، كروح طوباوي يخدم ملك الملوك ورب الأرباب، يسوع المسيح الإله الإنسان.

كان القديس توما الأكويني، بعد تقدمته قداسه، يخدم قداساً آخر للشكر. والقديس توما مور أكبر وزراء إنجلترة كان يعتبر أكبر الشرف أن يخدم القداس، فقيل له يوماً : ان الملك قد يتكدر لو علم أن وزيره يتنازل ويخدم قداس كاهن مسكين، فقال الوزير : لا يمكن لسيدي الملك أن يتكدر لو علم أني أخدم سيده ملك الملوك ورب الأرباب.

وكان من عادة الملك ونسلاس، ملك بوهيمية، أن يخدم القداس بمنتهى الاحترام، ولا يرى شرفاً ملوكياً أعظم من خدمة القداس لكاهن فقير. فكان يجثو على درجة الهيكل العارية ويحترم كل ما يتعلق بالذبيحة المقدسة، حتى انه كان يزرع بيده القمح في حقل، ويحصده، ويطحنه ليعدّ بيديه القربان للتقديس.

ولا يزال روح الإيمان هذا عند كثيرين من العظماء والعلماء فإنهم يعدّون خدمة القداس والتناول اليومي أعظم شرف وأكبر تعزية.

رأت القديسة متيلدة نفس راهب علماني ظهر لها مكللاً بنور ساطع من المجد، وقال لها : انه نال هذا المجد مكافأة له عما استطاع أن يخدم من القداسات الكثيرة، بكل ما أمكنه من الإيمان والعبادة.

ولا حاجة الى القول إن من يخدمون القداس بإهمال وبغير احترام لا يكسبون أجراً بل يعرّضون أنفسهم لغضب الله.

الفصل الثالث والعشرون

كيف يجب أن نمضي وقت القداس؟

طريقة أولى

روى القديس ليونار أن أخاً فاضلاً كان يحضر القداس دائماً على أكمل حال، وهو يقرأ ما كان يدعوه ((ثلاثة الأحرف)) :

1 ((الحرف الأسود))، ويعني به التبحر في خطاياه كلها، وكان يصدر حينئذ أفعال تواضع، وتوجع، وندامة من أول القداس الى الإنجيل.

2 ((الحرف الأحمر))، ويعني به التأمل في آلام يسوع المسيح، من الإنجيل الى التناول.

3 ((الحرف الأبيض))، ويعني به أن يتحد بكل قلبه وبكل ذهنه بطهارة يسوع المسيح وقداسته. فيتناول سرياً أو روحياً، ثم يسأل المخلص أن يستولي على نفسه ويعطيه عند موته المجد الأبدي ثمرة ذبيحته المقدسة. فكان بفضل هذه ((الاحرف الثلاثة))، أي بتأمله وصلواته، يشغل الوقت بنوع مفيد للغاية طول مدة القداس.

طريقة ثانية

يرى القديسان ألفونس دي ليغورى وليونار دي بورموريس أن نقسم وقت القداس الى أربعة أقسام، نخصص كل قسم منها بالتأمل في إحدى غايات الذبيحة :

1 فمن أول القداس الى الإنجيل قدّم أفعال استغفار، أي أقر بخطاياك، شاعراً بالخوف مما استحققته من العقوبة عليها، واطلب من الله أن يرتضي بقداسة يسوع وموته، تكفيراً عنها، ثم التمس منه أن يمحو كل القصاص المرتب عليها أو جزءًا منه. اطلب هذه النعم، معتمداً على آلام ابن الله الموجعة، مصدراً أفعال ندامة صادقة، حتى الإنجيل.

2 ومن الإنجيل الى التقديس، قدم لله أفعال الشكر... فاشكره لأنه خلقك،وافتداك، ومنحك الإيمان، ولأنه أرسل ابنه الى العالم لكي يعلّمك ويخلصك. ثم تذكر جميع النعم الروحية والزمنية التي أسبغها عليك أنت، وعلى من تحبهم وتلتزم أن تصلي من أجلهم.

3 ومن التقديس الى التناول، قدم أفعال سجود وعبادة. وبينما أنت ساجد للجلال الإلهي المحجوب وراء الأعراض المقدسة، كرر، لا انقطاع : المجد للآب ... إلخ. إكراماً ومدحاً للثالوث المعبود. ثم اسجد لناسوت يسوع المقدس فاديك، واسأله أن يقدم هو نفسه سجودك مقترناً بسجوده، ليقبله الآب القادر على كل شيء.

4 ومن التناول الى آخر القداس أشغل نفسك بأفعال الابتهال، ملتفتاً الى نفس المسيح الذي تناولته، سرياً أو روحياً، أن تشفع لك لدى الآب، واسأله أن يقبل توسلاتك، واعرض عليه رغباتك، كأن تطلب زيادة في إيمانك، ورجائك، ومحبتك، أو انسحاقاً في ندامتك، أو صبراً في محنتك، أو أي نعمة أخرى.

فإنك بتأملك في غايات الذبيحة الأربعة تتمم بالاتحاد مع يسوع المسيح، واجباتك الأربعة العظمى نحو الله.

طريقة ثالثة

وهي أحسن طريقة لسماع القداس وتقوم بأن تتابع حركات الكاهن وكلماته وتتأمل فيها :

(1) عند وصول الكاهن الى المذبح

قل : أريد يا الهي أن تقبلني اليوم شريكاً في هذه الذبيحة المقدسة. اني أؤمن أنها الذبيحة نفسها التي قدمتها على الصليب لأجلي. وأؤمن بأنك تجدّد تقديمها الآن لأجلي.

فخفف عني، بحقها، مرارة تنسى، فأنت وحدك قوتي وملجئي، وهبني فرح القلب. فاتكالي كله عليك.

(2) الكاهن يرسم اشارة الصليب

قل : بسم الآب والابن والروح القدس. ليكن صليبك، يا رب، حافظاً لى من جميع الشرور الحاضرة والمستقبلة، ويشرك حياتي بحياتك وآلامي بآلامك.

(3) الكاهن يقبل المذبح

قل : مذبحك، يا الهي، أقدس مكان في بيتك، وفوقه تحضر بناسوتك ولاهوتك. هبني أن أشعر بحضورك في نفسي.

(4) الكاهن : المجد لله في الأعالي...

قل : المجد للآب والابن الروح القدس، الآن وكل أوان والى الأبد. يا كلمة الله، يا من شئت أن تتجسد لأجل خلاصنا من والدتك القديسة مريم الدائمة البتولية، وقد صلبت، أيها المسيح الاله، وبموتك وطئت الموت، أنت أحد الثالوث القدوس الممجد مع الآب والروح القدس، آمين.

(5) الرسالة ....

قل : كما كان بنو إسرائيل يجلسون على شاطئ الأنهار، في المنفى ويستمعون الى صوت الأنبياء يحثونهم على الرجاء، وكما كانت الكنيسة في الأجيال الأولى تصغى الى رسائل رسلك يفسّرون لها فرح المخلص وحبه. وكما كان شهداؤك، في أيام المحن، يجدون في هذه النصوص تفسيراً لتضحياتهم. هكذا، يا رب، ليجدني كلام شهودك ثابتاً في إيماني، حارًا في عبادتي، مستعداً لسماع صوتك فيملؤني قوة ورجاء، هذا الصوت الذي صرع بكلمته، على طريق دمشق، عدوك شاول وفطر قلبه، فأصبح القديس بولس الرسول.

(6) الإنجيل، كلمة الله :

هي لحظة خطيرة، تسمع فيها صوت ابن الله المتجسد.

هو المسيح يخاطبك، يا نفسي، فاصغي. ان قصة حياته، ورسالته سيان. هو الطفل الذي تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وولد في مغارة، واشتغل نجاراً، ووعظ وعلّم، على تلال الجليل، وعلى شاطئ بحيرة طبرية، وشفى غلام قائد المئة، وسكّن أمواج البحيرة، وأقام لعازر من القبر. وهو المثال الفريد للإنسان الكامل. فأصغى اليه! علم الناس أن يحب بعضهم بعضاً، وأن يغفروا لأعدائهم، ويعاملوهم كإخوة، وأوصاهم أن يكونوا أطهاراً ومتواضعين، كما كان هو طاهراً ومتواضعاً.

وعلمهم أن يعيشوا في حضرة الله، مثله....

وعند ما يُعييه الحقد والخيانة، ويسلم الى العار، وعند ما يتألم جسمه البشري أكثر مما تستطيع أن تتألم، ويموت كما تموت بل موتاً أفظع، وأهول، وأشد عاراً، فحينئذ يعلن بمثله أن الموت قد ابتلع بالغلبة.

وهكذا فداك، ووعدك بالحياة.

فأصغ اليه، يا قلب، أصغ اليه.

(7) قانون الإيمان :

اتلُ مع الجميع واقفين : نؤمن بإله واحد...

أول كنيسة أدخلت قانون الإيمان في القداس كنيسة أنطاكية ثم القسطنطينية، وبعدها اسبانيا، ففرنسا، فألمانيا، ثم رومة.

(8) الكلام الجوهري، كلام التقديس هو ((قمة القداس)). الكاهن يقدس الخبز والخمر، تذكاراً للعشاء السري، ويجدد ما صنع يسوع، اذ قدم جسده ودمه ذبيحة لأجل خلاص العالم.

قل (عند رفع القربانة) : أنت حاضر، يا الهي، هنا، على المذبح. فأنا أسجد لك، وأؤمن أن هذه القربانة التي أراها هي أنت نفسك. هبني أن أحبك يا مخلصي وأتعلق بك بإرادتي، وقلبي، وذهني، وكل قوتي. ليكن، يا رب، جسدك ودمك لعفاف نفسي، ومغفرة خطاياي وللأنس بك، لا لمحاكمتي، ودينونتي.

(9) الكاهن يتذكر الصليب، والقبر، والقيامة، وصعود الرب الى السماء، وجلوسه عن يمين الآب ومجيئه الثاني.

فكّر وقل : لو كنت بين الجموع التي كان يسوع يخاطبها، فبأي فرح كنت أصغي الى كلامه، ولو سمعته يدعو لعازر أن اخرج من القبر، فأي هزة طرب كانت تعتريني!

ولو اني حضرت العشاء الأخير ... أو وقفت مع المجدلية ويوحنا عند الصليب ... ورأيت، صباح الفصح، الحجر مدحرجاً، والقبر فارغاً، فأي حب! واي لوعة! ثم أي رجاء كان يستولي علي!

كل تلك الكلمات، والإرشادات، والصلوات، يا نفسي، هي تلك المأساة، ذلك السر العجيب، سرّ الفداء - الكفارة عن الخطيئة.

كل هذا من أجل خلاصك الأبدي.

(10) الكاهن يذكر جميع القديسين، والمتوفين، والأساقفة، والكهنة والكنيسة الجامعة، والمسكونة كلها.

قل معه : اقبل يا رب صلاتي من اجل اخوتي الذين لا يزالون في الظلام. من اجل من أحبهم، ومن لم أكن أحبهم، وهم جميعاً في ذاكرة قلبي،

من أجل من صلّوا قبلي في هذه الكنيسة كما أصلي أنا الآن، من أجل نفسي، تكفيراً عن ذنوبي قبل حلول أجلي، ومن أجل جميع من سأنضم اليهم قريباً من الأموات ولا رجاء لهم إلا في استحقاقات صليبك الكريم.

خلّصهم، يا رب، وخلصني! وبما أن خطاياي تهددني بالموت والعقاب، فأرجو أن دمك الثمين يطهرني قبل حلول الأوان.

(11) الكاهن : أهّلنا أيها السيد لأن نقول : أبانا الذي في السماوات. فكر وقل بعد تلاوتها : هذه الصلاة، أنت، يا رب علمتنا اياها. وما زال أبناؤك يتلونها جيلاً بعد جيل. وقد قلت لي فيها ان الله هو أبي وانه اتخذني ابناً وجعلني وارثاً في ملكوته.

فكن يا أبت حاضراً بيننا على الأرض، كما أنت في السماء. احفظني في الحياة، ما شئت، وارزقني العيش، بتعبي، واغفر ذنوبي وهبني أن أعامل غيري بمحبة كما تعاملني.

(12) الكاهن يقسم حمل الله ابن الآب الأزلي الذي يكسر ولا ينفصل، ويؤكل كل حين ولا يفنى، ويقدّس المشتركين فيه.

فكر وقل : هذا الخبز الذي كسرته أنت نفسك في العشاء الأخير، ووزعته على رسلك، هذا الخبز الذي كان شهداؤك يتعاطونه فيما بينهم، قبل أن تطحنهم أضراس الضوارى طحن القمح، هذا الخبز الذي يجدّده القداس الدائم على وجه الأرض كلها. هبني أن أقبل هذا الخبز، لا لنفسي وحدي، بل من أجل جميع المؤمنين باسمك، ومن يعرفونك ومن يجهلونك.

(13) التناول

الكاهن : أومن، يا رب، واعترف أنك أنت المسيح ابن الله الحي، الذي جاء الى العالم ليخلص الخطأة الذين أنا أولهم. وأومن بأن هذا الخبز هو جسدك الطاهر ودمك الثمين. اقلبني اليوم شريكاً في عشائك السري! يا ابن الله.

فكّر وقل : أي كلام في لغات الأرض يمكنه أن يعبر عما أريد أن أقول في هذه اللحظة؟ ان فرحي لم يبق من الأرض. أشعر بنور وجهك، يا رب، يشرق على أعماق

روحي، ويسكرني بعذوبة حبك. أنت فيّ وأنا فيك. كل هذا سر، تسكت عنده نفسي وتعبدك روحي.

أي شكر بشري يكافئ عطيتك السماوية، وأي حب يوازي ما ضحيت من أجل حبك، فليس من تقدمة ولا من موعد إلا وهما دون تقدمتك.

ماذا أقدم لك، يا رب؟ وماذا أقول لك؟ - لا شيء سواك. اني أقبلك صامتاً مستسلماً.

وأسألك، ذكراً ليوم مناولتي الأولى، أن تفعل بي ما تشاء، وأن تحفظني كما تريد ان أكون.

اقبلني اليوم، شريكاً في قربانك، متحداً بك بآلامي، وأفراحي، بآمالي وخيبة آمالي.

هبني أن أبقى كطفل بين يديك.

الفرح والسلام

فرح وسلام

((يا أخوتي، افرحوا في الرب، كل حين، وأقول أيضاً افرحوا. لا تهتموا البتة.... وليحفظ سلام الله الذي يفوق كل فهم قلوبكم وبصائركم في يسوع المسيح)).

(فيلبي 4)

تمهيد

قال سليمان الحكيم : ((لقد رزقت نفساً صالحة))

(سفر الحكمة فصل 8 : 19)

نحمد الله أن ليس سليمان وحده يستطيع أن يصرح بمثل هذا القول، فإن النفوس الصالحة بين فضلاء المسيحيين كثيرة، لا تحصى.

وهذه النفوس الصالحة تمتاز بميلها الى الخير أكثر من ميلها الى الشر، كما تمتاز بلطافة في الضمير قد تتحول أحياناً الى ارتباك، مع طواعية واستقامة وبساطة لا مثيل لها.

غير أن عيبها الأكبر أنها تتمسك وتتوقف في الجانب السلبي من الكمال المسيحي، أي في درس عيوبها، فلا تستفيد من ذلك شيئاً بل قد تخسر كثيراً. وحسبها خسارة ما تضيعه من الوقت سدى.

مثل : بينما كان القديس بركمنس يحدّث مرشده الروحي في رياضة، قال له : ((اني لم أستفد شيئاً من ممارسات الأسبوع الأول ..)) فكم من نفوس صالحة تستطيع أن تقول هذا القول نفسه.

ولقد كانت تربح أكثر، لو أنها اشتغلت بالإيجابي من الكمال أي بأن تتحد أولاً بربنا، فذلك أخص ممارسات الحياة الباطنية.

وسبيلها الى النجاح والتقدم السريع أن تسكن في السلام والفرح. ان إبليس عدو البشر يحاول دائماً أن يبشِّع النفوس ويدنِّسها أو أن يقلقها ويروعها.

أما الروح الصالح، فبخلاف ذلك يكون على مثال يسوع نفسه. يصوره القديس أغناطيوس جميلاً ومملوءًا نعمة – يولي النفس المستقيمة الفرح والسلام لكي يساعدها على التقدم.

فليكن كل منا لغيره، ولنفسه ملاكاً وروحاً صالحاً ينشر حوله السلام والفرح، ولنحاول جميعاً إدراك ذلك بالعمل، أي بالدرس، والمجاهدة، ومحاربة الروح الخبيث وبالصلاة خاصة.

مناجاة للحصول على

السلام والفرح

يا كلمة الله، ضياء الآب وضيف نفسنا الحبيب، يا يسوع الساكن فينا في وحدة روحك القدوس، يا من تريد أن تملك علينا، بقوة الروح القدس عينه، هبنا أن نشعر بمفاعيل هذا الملك المبارك : ملك السلام والفرح.

سلامك وفرحك، لا سلام وفرح سعداء هذا العالم الناجحين في شئونهم كلها، والحاصلين على كل ما تشتهيه نفوسهم، من صحة، وتنعم، وغنى، ونجاح، بل هبنا سلامك وفرحك كما تهبهما أنت، وكما كنت حاصلا عليهما :

سلام وفرح الطوبيات

سلام وفرح أبناء الله

سلام وفرح القديسين

سلام وفرح أبطال الإنجيل

سلام وفرح أحباء الصليب

سلام وفرح الشهداء

سلام وفرح طلاب الأبدية

سلام وفرح المشتاقين الى السماء....

نعم، السلام والفرح، رغم ما نشعربه من المصاعب والضيقات، في هذه الحياة ورغم ما نقاسي من مقاومة العدو والتجارب المختلفة كافة.

السلام والفرح حتى مع الدموع والاضطهاد وما بين المشاغل والأتعاب المتواصلة.

السلام

مناجاة أولى

يا كلمة الله، ضياء الآب، وضيف نفسنا الحبيب، يا يسوع، ملك السلام، أعطنا السلام.

هبنا تلك الراحة التامة للرأس والأعصاب، وذاك الهدوء الكامل في الباطن والظاهر، وتلك الثقة الوطيدة والصفاء الهنئ، واللطافة العذبة، الجاذبة القلوب، وذلك التأني المقدس، والهوادة المفرحة. وهبنا، عند الحاجة وأوقات الشدائد، شيئاً من ذلك السكون العلوي غير المتزعزع، الدال على نفس مطمئنة، سعيدة، ترى كل أمورها ناجحة في الله، وترى كل ما يحل بها حسناً، لأن كل شيء يؤول الى خير من يحبون الله.

غلغل في صدورنا، بحق روحك القدوس، واخلق فينا، وانشر وحكم في قلوبنا، رغم الانفعالات المضادة :

1 الشعور بأن لا شيء يضطرنا، ويحرجنا، ما دامت إرادة الله لدنيا خير ما يمكن أن نتمناه من الشواغل.

2 الشعور بأن لا شيء يقيّدنا ويأسرنا، أو يربطنا ويجبرنا، أو يقهرنا نظير العبيد، والأجراء، والعمال المسخّرين. لا، فإننا لا نتعاطى إلا مع الله، ولا نخدم غير الله، وإننا نخدمه بالحب.... لا، لا شيء بالقوة، ولا بالإكراه، ولا شيء بالخوف وغصب القلب.

لذلك لا غصب، ولا إكراه، بل راحة وهناء. كل شيء بالحب والحرية، وكل شيء بالرضى والارتياح ((حاضر، حالاً، بطيبة خاطر)).

3 الشعور بأن لا شيء يكلفنا في حياتنا اليومية جهوداً غير عادية، وحسبنا ما نبذل، اذا كنا نفعل ما نستطيع، طبقاً لإرادة الله فينا فقد نصنع أكثر مما ينبغي، عندما نتصرف بحمية طبيعية.

4 الشعور بأن لا شيء يوجب قلقنا من سلوكنا مع الناس، في قضاء عملنا وتتميم واجبنا، لثقتنا بك (ثقتنا بتأييدك وتدبيرك)، وثقتنا بأنفسنا (أي باستعدادنا ونيتنا)، ولثقتنا بالآخرين وبحسن استعدادهم ولا سيما بمن نقصدهم وبمن يرسلهم الرب إلينا.

والشعور بأنك تحسن الى من نحبهم ولا نستطيع نحن أن نصل اليهم ونراهم، وأنك توليهم كل ما نتمنى لهم، وتحفظهم بالحرارة، والثقة والسلام، وتعزّيهم في ضيقاتهم وتستجيب طلباتهم كما كنا نصنع نحن لو كنا قادرين.

5 الشعور بأمان تام في ظل عنايتك الأبوية، ما دامت تعلم كل شيء، وتقدر على كل شيء وما دامت تحبنا.

الشعور بأنك أنت أيها الراعي الصالح تقودنا وأننا لا ينقصنا شيء في ظل حمايتك.

الشعور بأن لا شيء يوجب قلقنا من قبل المستقبل، لأن المستقبل ليس لنا. والله الذي له وحده المستقبل، هو يدبره ويساعدنا فيه، على قدر احتياجنا، وقدر ما يلزم لخيرنا الأعظم، كما يفعل المحمم حين يرتب قوة انحدار الماء ويعدّل حرارته.

الشعور بأن لا شي ينقصنا، مما نستطيع أن نشتهيه أو نحسبه ضرورياً لنا. لأننا في إرادة الله المقدسة واجدون كل ما يلزمنا ويوافقنا، فلا ينقصنا معها شيء.

وهبنا، لزيادة طمأنينتنا ودوامها، هبنا أن نشعر بغنانا في الله، وأن ننظر الى ما عندنا، وما نملك من نعمته أكثر من نظرنا الى ما يمكنا أن نشتهيه.

هبنا أن ننظر الى كل ما يجب علينا عمله من الأمور، لا من الجانب العسير والجهة المعقدة المكروهة، بل من الجانب الميسور، والجهة الجذابة وما فيها من السهولة والتعزية.

ومتى كنا لا نريد حقاً إلا ما يريد الله، وكما يريده. وعلى قدر ما يريده، فأي شيء لا يكون لنا ميسوراً ومفعولاً، أو لا يكون خفيفاً ومحبوباً؟

أي شيء يستطيع أن يقلقنا؟ ....

أهي وصاياه تعالى، أم رغباته، وما هي بثقيلة.

(فعل إيمان) (1 يو ف 5 : 3).

قد تكون نيراً وجبراً وانحصاراً، ولكنّ النير مع طيب النعمة يصبح طيباً.

وقد تكون عبئاً، غير أن طيب النعمة يجعل العبء خفيفاً.

ان نيري طيب وحملي خفيف (متى 11 : 30).

6 الشعور بأننا لا نتعلق قلبياً بشيء إلا بإرادة الله المقدسة، ولا نتمسك بشيء من الدنيا حتى بالحياة نفسها، (الآن أطلق عبدك بسلام). فكيف نتعلق بما هو دون الحياة : كالصحة والرفاهية وما إليهما من أشغال وأعمال، وخدمة، ووظيفة، ومقامـ وعلاقات، أو تتميم ما بدأنا به...

7 الشعور بأننا زاهدون الزهد الذي يريده القديس أغناطيوس، ومستقلون استقلال القديس فرنسيس ديسال، وأننا أحرار من كل تعلق ومن كل هوى شديد يفقدنا روح الزهد الشامل الواجب أن نحتفظ به، أحرار من كل مأرب، ومطمع، وإلزام يضرّ بحرية الروح، وأننا متنزهون خاصة عن كل ميل غير مرتب كأننا على شفا الموت أو كأننا أموات.

8 اذاً الشعور بأن لا شيء يستطيع أن يؤذينا، ولا شيء يلزم أن يقلقنا، أو يهمنا، أو يخيفنا، ولا شيء يغيظنا، ويحزننا، أو يجربنا ويسهوينا، ولا شيء يضادنا، لأننا، متى كنا، كل حين، لا نريد إلا ما يريد الله، فلا شيء يخالف هوانا، بل كل شيء يكون طبق مرامنا، هذا المرام الذي يجعل إرادة الله فوق كل شيء.

9 هبنا اذًا الشعور بأن لا شيء خليق بأن يسلبنا راحة الرأس والأعصاب، ولا ذلك الهدوء التام، باطناً وظاهراً، ولا تلك الثقة الكاملة، والصفاء البهي، والفرح الظاهر، وتلك اللظافة العذبة الخلابة، وذلك التأني والهوادة. وهبنا، في أمس الحاجات، شيئاً من ذلك السكون السماوي الذي ينم عن نفس هادئة سعيدة، لأن كل أمورها ناجحة في الله، وكل شيء عندها حسن.

10 واذا الريح هبت والعاصفة عصفت، فمر، يا يسوع، الريح والعاصفة فتسكنا وتهدأ، ونعود نحن الى مواصلة أشغالنا هادئين كأن لم يكن من شيء.

11 واذا ما وافى الألم فإنك تمنحنا، رغم تأثيراته المزعجة، ألا نفقد السلام، وأن نظل متحدين بك اتحاداً شديداً، كما ظللت متحداً بأبيك وأنت على الصليب، أنت يا كل قوة الشهداء.

المناجاة الثانية

ان ما اتخذناه من التدابير، حتى الآن، ما هو إلا لنضمن السلام مع الله ومع أنفسنا. فينبغي لنا أن نبجث عما يضمن لنا السلام مع القريب.

صلاة للحصول على الحب الكامل للقريب

1

يا كلمة الله، ضياء الآب، وضيف نفسنا الحبيب، يا يسوع، علمنا بروحك القدوس أن نفهم ونذوق، ودربنا على حب القريب، كما أردته وأوصيت به، في مثل السامري الكريم، وفي كلامك عن المجازاة في يوم الدين، وفي خطابك بعد العشاء السري – وكما أحببت أنت نفسك مدى حياتك.

وبقوة الروح القدس نفسه، الخالق والمحيي، غلغل بنا واخلق فينا، وانشر وسلّط على قلوبنا موهبة التقوى، حتى نكون مثلك، فننطرح على أقدام ((قريبنا)) كما علمتنا بمثلك في العشاء السري، راغباً أن نقتدي بك.

حتى اذا قابلنا قريباً أياً كان، طفلاً أم شيخاً، رجلاً أم امرأة، فقيراً أم غنياً، نحسّ أن له في قلبنا أخلص الولاء وأصدق عواطف المحبة.

أي أكرم محبة، عند الصفح والعطاء، أو عند التعويض عن ضرر أو كدر ألحقناه به.

بل أصبر محبة عليه، عند نسيانه إيانا، وقلة اكتراثه لنا، وخشونته علينا، وسوء نيته نحونا.

وأحلم محبة، فكراً وقولاً، فلا نتسامح أبداً بذمه أو بالنميمة عنه.

بل أرفق محبة في معاملته، وألطف محبة عند مقابلته، وأوفر محبة تشجيعاً وتفريحاً له.

وأحن محبة مؤاساة له، وأسرعها إسعافاً لكل جنس من المنكوبين : الفقراء، والمرضى، والأرامل، والأيتام، والأسرى المتروكين، والمسافرين المقطوعين، في

البر والبحر، والمائة والخمسين ألف محتضر، كل يوم، والنفوس البائسة، والمعذبة في المطهر.

وأسرع محبة الى التضحية بالوقت والذوق، وبما فينا من قوة ونشاط.

مع التناهي في اللطف، بلا توقع شيء من الربح والمنفعة.

2

أليس واجباً علينا أن نحب القريب، كما أحببته : ((أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم)) (يوحنا). أفلم تحبنا رغم ذنوبنا ورغم قبحنا – حتى أنفقت كل ما بوسعك حتى النهاية – قد تمّ.

أما فضّلت القريب على نفسك؟ فشئت أن يقدم عليك بالإكرام (متى 5 : 23).

أما يجب علينا ان نحبك أنت كما أحببتنا؟

واذا كنت تعد ما نصنعه الى أدنى إنسان مصنوعاً إليك (متى 4) أفما ينبغي لنا أن نبين، فيما نصنع اليه، كل ما عندنا من الحب لك؟ أو ليس في ذلك عزاء لنا أننا نستطيع وفاء اليسير مما لك علينا من الدين، دين عرفان الجميل.

حب القريب! أما ان تلك هي وصيتك، وصية قلبك المفضلة – بل ملء الشريعة، وميزة تلاميذك الصادقين، وأفضل وسيلة الى نيل الغفران، مهما كثرت الزلات.

((وقبل كل شيء أحبوا بعضكم بعضاً محبة شديدة، فإن المحبة تستر جماً من الخطايا)) (1 بطر 4 : 8).

حب القريب! أما وعدت من يمارسونه بأفخر الجزاء، لا في الأبدية فحسب به في هذا العالم نفسه.

((تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المعد لكم ... فإن كل ما فعلتم بإخوتي الصغار فبي فعلتموه)) (متى 25 : 34).

((طوبى لمن يراعى المسكين، ينقذه الرب في يوم السوء، الرب يحفظه، ويحييه، ويسعده في الأرض، ولا يسلمه الى نفوس أعدائه، الرب يعضده على سرير الوجع، ويمهد مضجعه كله في سقمه)) (مز 40)

أو ليس حب القريب لأمر جميل جداً، وصالح جداً، حتى إنه لحقيق بنا أن نتوسل الى قريبنا، لكي يرضى أن نخدمه ((ونغسل قدميه)) (يوحنا 15 : 12)، كما أوصى ربنا القديس بطرس في العشاء الأخير. وهو نفسه، أما دعا جميع المعذبين أن يأتوا اليه لكي يعزيهم ويقويهم : ((تعالوا الي جميعاً أيها المتعبون والثقيلو الأحمال، وأنا أريحكم)) (متى 15 : 28).

يا مريم يا أم المحبة الجميلة، يا ملكة السلام، صلي لأجلنا، واستمدي لنا المحبة الكاملة للقريب.

شرط

لكن، لا نقدر أن نثبت في السلام والهدوء الباطني والظاهر، ونتمتع براحة الرأس والأعصاب اللازمة لحرية الروح، إلا اذا جعلنا ارادة الله فوق كل شيء (الاقتداء ك ، 3 : 21).

واذا آمنا بالحب، بحب الله لنا، وعونه ايانا، وأنه لا يأذن بأمر إلا لخيرنا الأعظم، اذا استطعنا أن نؤمن، نشفى من أوهامنا ومما يقلقنا، ونقدر أن نعمل كل شيء ونحتمل كل شيء لفائدة نفسنا : ((اذا استطعت أن تؤمن، فكل شيء ممكن للمؤمن)) (مرقس 9 : 22).

فلنتعلم من قلب يسوع أن نكون ودعاء ومتواضعين، فنجد السلام. ((لا شيء يصعب على الودعاء وليني الجانب)) (القديس ليون). هبنا أن نفهم ما جاء في خطابك على الجبل (متى 5).

هبنا أن نعيش كما يعلمنا كتاب الاقتداء بالمسيح (كتاب 3 ف 17، 18 وكتاب 1 ف 2).

وأن نحارب أعداء السلام حتى نبيدهم، وأن ننظم المحبة فينا تنظيماً صحيحاً، فنطلب الله في كل شيء. في صداقاتنا وكل علاقاتنا...

وننظم أعمالنا اليومية، ونحسن استخدام الزمان حتى نكون دائماً مستعدين كالعذارى الحكيمات (متى 25).

هبنا ألا نفقد الاختلاء والاعتدال في جميع الأمور، ولا نستعجل في شيء.

وألا نقدم على أمر فوق طاقتنا (قوى الجسم والروح والعقل)، ولا ندع الشواغل تغرقنا، مهما كثرت وتعددت لأنك لا تطالبنا إلا باستثمار ما أعطيتنا من الوزنات، استثماراً يعادل قوانا وما لدينا من الوقت والقوة.

((كل انسان حسب طاقته)) (متى 25 :15). ما كلف الله نفساً فوق طاقتها.

بواعث واعتبارات

من نصائح القديس فرنسيس ديسال

((من تكرس لله، فليطلب الله، فلن يكون الله معه في الحنة أقل منه في وقت النعمة. وهكذا يبقى في وسط الشدائد سابحاً في جو السلام)).

((عيشي في الجو الروحاني، واسكني في ظل السلام وثقي أن الله يعضدك)).

((لا تنسي أن تتقني كل أعمالك : رقادك ونهوضك، جلوسك، وأكلك، وشربك وكل أمورك ... تذكري أن عليك أن تقومي بأعمالك، بكل تؤدة وإتقان. اني أنهاك عن الاستعجال في أعمالك، فهو شر النقائص ومنبعها)) (من رسالة إلى انجيل أرنو).

((يجب ان نحيا في سلام، أينما كنا وكيفما كنا)).

((أعدّ نفسك، منذ الصباح للهدوء، وابذل جهدك أن تذكرها به غالباً، وتردّها اليه طول النهار))

((اجتهد أن تجعل نفسك في جو من العذوبة، وقل لها : مهلا يا نفسي، فلنمش على مهل، ولنكن على حذر)).

((ان الله يمتعنا بالسلام، متى بلغنا من التواضع الى أن نحارب، ونحن هادئون)).

((انا لن نصل الى الوداعة الكاملة والمحبة التامة، ما لم نمارسها، بين الكراهية، والنفور، لأن السلام الحقيقي لا يكون بترك القتال، بل بالنصر، السلام الحقيقي لا يكون بعدم المصاعب، بل بالتغلب عليها.

((ومهما يكن من الحوادث، فإياك أن تفقد السلام الباطني، فما قيمة كل ما في الدنيا، إزاء سلام القلب؟)).

من أقوال القديس أغناطيوس : ((اذا بلغني أن الرهبانية قد ألغيت، فحسبي أن أختلي ربع ساعة، أمام القربان المقدس، فأستعيد السلام)).

مهما طلبنا غير السلام، فلن يساوي السلام نفسه.

اذا كنا لا نطلب إلا الله، ونحن واجدوه كل حين – بإرادته وحضوره – فكيف لا نكون دائماً في سلام؟ ... لو كانت جميع رغباتنا، وسعادتنا، ولذتنا في أن نريد ونعمل، لا هذا الأمر، ولا ذاك، بل ما يريد الله منا في الساعة الحاضرة، لكنا نعمل دائماً كل ما نريد.

لا شيء مما نعمله يزول بل يبقى جميعه.

يقول الروح القدس : انهم منذ الآن يستريحون من أتعابهم، لأن أعمالهم تابعة لهم (الرؤيا 14 : 13).

فليضطرب، ويتعجل، ويهتم أؤلئك الذين أعمالهم لا تبقى، لأنها معدة للزوال.
وليستعجل أولئك الذين لا يقدرون أن يرتجوا، أن تتبعهم أعمالهم وأرباحهم، أما أولئك، فليستريحوا وليهنئوا، لأن كل ما عملوا باق، لا يزول، وكله محفوظ في خزانة الملك.

لا يقلقنَّك أمر. فمن يستطيع أن يعكر سلام قلب يحبك، يا رب ؟ ...

إنه يطلب في كل شيء مشيئتك السامية، لا مشيئة نفسه. وهل من سعادة على الأرض أو في السماء نفسها تساوي سلام قلب يحبك؟ (تريزيا) طوبى لمحبي السلام فإنهم أبناء الله يدعون (متى 5 : 9) الكمال في السلام (أغوسطينوس).

صلاة تتلى أيام الحروب

اللهم، أنت ينبوع الرغبات المقدسة، والنيات الصالحة والأعمال العادلة، امنح عبيدك ذلك السلام الذي لا يقدر العالم على منحه، حتى تتمسك قلوبنا في وصاياك، واذ ننجو من مخاوف الأعداء، نحيا أياماً هنيئة في ظل حمايتك. آمين .

الفرح

1

مناجاة أولى

يا كلمة الله، ضياء الآب وضيف نفسنا الحبيب، يا يسوع مشتهي قلوبنا، نسألك بحق أفراحك أن تمنحنا، مع السلام، الفرح، الفرح الأبدي، فرحاً دائماً، فرحك أنت، وليملأ قلوبنا، فلا ينزعه منها نازع أبداً .

بحق روحك الخالق والمحيي، غلغل فينا واخلق وسلّط على قلوبنا – رغم ما يعترينا من التأثرات المضادة – شعوراً حياً بحسن حالتنا الأدبية، وما نحن فيه من السعة والانبساط، والحرية، والاستقلال العام، والاكتفاء المقدس، والثقة والنشاط. وبالجملة هبنا أن نشعر شعوراً كاملاً بسعادتنا في الله، حتى تمتلئ نفوسنا كل حين بهجة. كما يطلب الرب حسب قول المزمور (39 : 17) ليسر بك جميع الذين يلتمسونك ويفرحوا، وليقل في كل حين محبو خلاصك : ((تعظم نفسي الرب)).

وحتى نطيع وصية القديس بولس : ((افرحوا دائماً بالرب)) (فيلبي 4 : 4)، وقوله في رسالته الى الرومانيين (ف 7 : 38).

ونلبي رغبة الكنيسة : لنكن دائماً متعزين.

ومشورة القديس أغناطيوس : لنتعلم أن نبتسم دائماً لكل شيء.

1 لنبتسم لكل شيء، دلالة على الشكر لما نلنا من النعم :

نعمة حب الله الأبدي ((اني أحببتك حباً أبدياً))،

نعمة تجسد ابن الله ((في البدء كان الكلمة)) (يوحنا 1)،

نعمة اختيارنا وخلقنا، وحفظنا، وفدائنا وتبريرنا،

نعمة حضوره فينا، اذ يريد أن نتمتع به ونفرح معه،

نعمة حياته فينا، اذ يريد أن يبلغ الى أن يعمل كل شيء بنا، بالروح القدس (الفعل الباطن) فنصير أشباهاً له هو نفسه، حتى اذا شئنا أن نعمل عملاً، كان هو العامل بنا، واذا لزم أن نتعذب، كان هو المعذب فينا، أو أن نتكلم كان هو المتكلم فينا.

وهكذا يتم كل شيء بناسوته المقدس في النفوس المنقادة لإلهامات النعمة، بحيث يستطيع قديس كبولس أن يقول : ((أنا حي، لا أنا، بل المسيح حي فيّ)) (غلاطية في 2 : 20).

ونعم عنايته، بإنقاذنا من المصائب التي تحل بنا (الفعل الخارجي) (ما يجري في بركة لورد ... ازاء ما في العالم من الشقاء).

ونعمة دعوتنا الى حياة الكمال، والحياة الباطنية،

ونعمة دعوتنا الى تقدمة القداس، وتتميم سائر الخدم،

ونعمة المناولة اليومية،

وتلك النعم الممتازة التي تؤهلنا لأن نسعف النفوس.

انه لحسن أن يكون الإنسان طيباً وأن ينشر حوله السلام والفرح،

ونعمة ما نقبل وما نولي من المعروف.

ولما كانت هذه النعم غير محصورة ولا منقطعة لزم أن يكون الابتسام مثل الشكر متتابعاً (في كل زمان ومكان) وصريحاً وجازماً، ليقطع دابر كل غم وكل أثر للهم.

2 لنبتسم لكل شيء، دلالة على الإيمان وبرهاناً على أننا نؤمن بالحب حب الله الخاص لنا : ((ونحن قد عرفنا وآمنا بالمحبة التي عند الله لنا، الله محبة ...)) (1 يو 4 : 16).

((أحبني وبذل نفسه عني)) (غلاطية 2 : 20).

أما إن هذا اليقين بأن الله يحبنا خاصاً، منذ الأزل والى الأبد، فيه ما يجعلنا كل حين فرحين ؟....

3 لنبتسم لكل شيء دلالة على الثقة. أما من الماضي، فليس فقط لثقتنا بأن كل ما جنينا من الذنوب قد غفر وامحى وباد، لما قدّمنا من الندم، ولكن لأن إثمنا سيكون مفيداً لنفسنا حسن لي أنك ذللتني.

وأما الثقة بالحاضر، فلأن كل شيء يؤول الى صلاح من يحبون الله ويحبهم، ولأننا نحن أحباء الله وأبناؤه الأعزاء.

ومن قبل المستقبل، فلثقتنا بأننا لن ينقصنا شيء مما يلزم لتقديسنا ولتتميم ما يريد الله منا، ولثقتنا بأننا نمضي الى السماء، ونحظى فيها بمدح الله وبقربه، على قدر ما نكون قد مارسنا في الحياة من الصبر، والمحبة، والغيرة، وعلى قدر ما نكون قد أحببناه تعالى وحببناه الى النفوس، وعلى قدر ما نكون قد عانينا في سبيله، وحباً لمشيئته من الأتعاب المضنكة والتضحيات المضينة، وعلى قدر ما نكون قد تألمنا وجاهدنا لأجله في هذا العالم، مثل القديسين، ((فرحت بالقائلين لي الى بيت الرب ننطلق)) (مز 121).

4 لنبتسم لكل شيء، دليلاً على صفاء النية، ولنحاول ما استطعنا أن نكون متفائلين.

5 لنبتسم لكل شيء، دلالة على حبنا لله، فإنه يوصينا بأن نحبه (حب الخضوع، كطفل يخضع بطيبة خاطر، وحب التساوي كعروس هائمة بعروسها). نقول : آمين، مستسلمين.

ان الله سعيد جداً سعادة لا تزول، ولا تتغير ولا تنتهي فلنحبه حب الفرحين بسعادته.

وان الله جميل جداً، وعظيم جداً، وكامل جداً، وقدوس جداً، وطيب جداً، وهو مشتهي قلوبنا وفخر حياتنا، وهو الحب الكامل الكافي الكفاية كلها :

فلنحبه حب العبادة. سبحان الله، من مثل الله!

6 لنبتسم لكل شيء، غيرة وإكراماً وتعزية لله، لكي نقتدي به ونعوضه، ونرضيه.

لقد طالما وقف المسيحيون نفوسهم وديارهم على الله الكلي الصلاح، فلم لا نقف نحن نفوسنا على إله السلام وكل تعزية، الاله الكلي السعادة، الذي لا يعتري فرحه كدر.

ليكن في سلوكنا ما يذكر الخلق بشيء من صفاته تعالى، ولو كضوء بعيد : ظاهر دائم الهدوء، فرح، لطيف، بشوش... ان من يريدون التعبد للعذراء الطاهرة، فإنهم يكتسبون بألوانها.

الابتسام الدائم يجعلنا وقفاً حياً على اله السلام وكل تعزية (رومانيين 13، كورنتس 1)، ويجعلنا أشبه بمفكرات حية تذكر الناس بصفاته تعالى الالهية (وهذا حب التشبيه والتمثيل).

ان أبانا الذي في السماوات يغمر البشر بإحسانه : الخلق والحفظ، والفداء، والعناية، ولا يسمح بمحنة تحل بهم إلا لما ينجم عنها من الخير العظيم. ومن أدركوا مقاصده وارتضوا بإرادته، فإنهم يفيدون من المحن أجل الفوائد.

((كم نعمة، لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنة))

أما أعداؤه فإنهم يعدّونه ظالماً، قاسياً، بلا شفقة، وبلا رحمة، ويتجاسرون فيتهمونه (بأنه ظالم). فعلينا أن نحتج على هذا البهتان الكفرى، بما نبديه من الرضى والسرور، برهاناً على أننا سعداء في خدمته، وأننا فيها على أحسن ما يكون.

حسن لنا أن نكون ههنا (متى 17 : 4).

ان الله أبانا الكلي الصلاح يحق له أن يحزن مما يردده معذبو هذا العالم من التذمر والشكاوي.

فعلينا نحن أن نعزيه ونعوضه من ذلك بفرحنا وابتسامنا الدائم، وعلينا أن نحتج على ما شاع في عصرنا من التشاؤم، وعلى ما يبدو على الوجوه من العبوس، والسأم، والغضب، كأن الناس أطفال يتامى، لا عائل لهم.

7 لنبتسم لكل شيء، غيرة على منفعة الآخرين، حتى نجذب الناس الى خدمة الله، وهو راضون مرتاحون، بمثل الدوافع والعواطف التي تدفعنا نحن. ولا بد لذلك من استمالة قلوبهم، وإلقاء الثقة في روعهم، لينقادوا اليه راغبين.

الناس يمضون الى ذوي الآمال، الى من يبشرون بالخير والسعادة، وهم يحبون المتفائلين ذوي الطباع المؤنسة والعقول المتزنة، من أهل البشر والبشاشة، ويميلون الى الطيب الروح والمخلص القلب.

فإذا شئنا أن نصنع جميلاً ونأسر القلوب، يجب أن نكون فرحين مبتسمين لكل شيء، دليلاً على لطف مزاجنا، وكرم طبعنا وحسن ذوقنا، ودليلاً على اللطف، والصلاح وطيب الروح.

8 لنبتسم لكل شيء، رغبة في الفوز والنجاح. سواء أكنا نعمل لله، أم لنفوسنا، أم للقريب، فلا شيء ينجح نجاحاً صحيحاً إلا ما يعمل بفرح.

9 لنبتسم لما تقدم من الأسباب (لمعرفة الجميل، وللإيمان، والرجاء، والمحبة، والغيرة في أقصى حدودها). ولنبتسم أيضاً، ما استطعنا :

1 للمحنة، فإنها بذاتها تعبر عن مشيئة الله، وليست دون عطاياه الأخرى قيمة.

2 ولنبتسم ما استطعنا، وبخاصة، للمحنة، لما ينتج عنها من المنفعة.

مناجاة ثانية

السلام والفرح في المحنة

يا كلمة الله، ضياء الآب، وضيف نفسنا الحبيب، يا يسوع، نسألك، بحق روحك القدوس الخالق والمحيي، أن تفيض في نفوسنا، وتخلق فينا، وتنشر وتنمي هذه الرغبات التي هي فوق طاقتنا، ومستطاع ضعفنا - أعني السلام والفرح، حتى في أشد المحن إيلاماً للروح، حتى في العذاب، أفض ذلك علينا، كما أفضته على قلبك الأقدس، وعلى رسلك، وعلى النساء القديسات، بعد قيامتك المجيدة، وبعد العنصرة ((فمضوا فرحين)).

اجعل يا يسوع، ما يقدر أن يزعجنا أو يغيظنا أو يغضبنا، أو يحزنا أو يؤيسنا، عاجزاً عن أن يغيظنا، أو يحزنا، أو أن يؤيسنا ويخمد نشاطنا.

وليكن كل ألم، وحرمان، وجهد، وتعب، وكل عائق، ما أمكن الأمر، سبباً لتجديد نشاطنا وشكرنا، ولا تكن عاقبته إلا لتقريبنا من الله، وحملنا على الابتسام من جديد، وبطيبة خاطر، ولم لم يكن ذلك في وقت المحنة، فعلى الأقل بعد عبورها.

وحينئذ، لن نشك أن ملكوتك آت وأنه فينا على الأرض، كما هو في السماء.

لأن الفرح في الألم أوضح دليل على حب الصليب.

شرط

ولكن لن نستطيع البقاء في الفرح، إلا اذا جعلت قلوبنا، يا يسوع الوديع والتواضع القلب، مثل قلبك، متواضعة، ومطيعة، فإن شرط الفرح الضروري إنما هو السلام والثبات في النعمة : ((أحببت البر وأبغضت الإثم، لذلك مسحك الرب بدهن الفرح)).

شرط الفرح إنما هو نقاوة الحياة، وموت الروح عن كل ادّعاء وغيظ وأنانية، وإلا فلا سلام، ولا برارة، ولا ثبات في النعمة، بدون تواضع وطاعة. علّمنا أن نحارب أعداء الفرح ونبيدهم.

ومتى أتممنا هذا الشرط، واتخذنا هذه الاحتياطات، فلنتقدم عازمين ولنحث نفوسنا على الفرح حتى في الألم.

بواعث واعتبارات

نصائح للقديس فرنسيس ديسال

((هاك الكلمة العظمى : ابحث عما يريد الله منك، ومتى وجدته، فأقدم عليه فرحاً أو غير هياب.

((لا تظن أبداً أنك وصلت الى ما يجب أن تقدمه لله، من طهارة القلب، إلا اذا أخضعت إرادتك، برضى وسرور، حتى في المكاره، لإرادة الله المقدسة)).

((اللهم، شجاعة! فإن الأنوار والأفراح ليست في طاقتنا، ولا شيء من التعزية إلا ما رسخ في إرادتنا.

((لا تدع الكآبة تستولي على نفسك وتحيا في مرارة الروح والوسواس، لأن الذي أحب نفسك ومات ليحيها هو صالح، ووديع ومحبوب جداً)).

((لا تستسلم، أبداً الى الغم، فالغم عدو العبادة، فممّ يجب أن تغتم نفس تخدم من سوف يكون فرحها الى الأبد)).

((لا نرض لأنفسنا أن تضطرب أو أن تقلق لأمر أياً كان)).

((إنك تستطيع أن تميز ما ينبغي أن تحتفظ به أو أن تبعده من الأفكار، بما تجده فيها من الثقة أو عدمها برحمة الله. فإذا كانت تدعوك دائماً الى زيادة ثقتك به، وجب أن تقبلها قبول رسل وافدة من عنده تعالى، فتطيل مناجاتها والتمتع بها، واذا كانت تثير حذرك، فعليك أن تبعدها كنفثات من الشيطان)) (كتاب سلام النفس).

نصائح للقديس يوحنا الصليبي

((لا تغتم سريعاً لما يأتي به الدهر من الكروب، فإنك لا تدري ما تجلب معها من الخير، وما تعد للمختارين، بأحكام الله السرية، من الفرح الأبدي)).

((علينا عند الحوادث، مهما شقت، أن نفرح لا أن نحزن)).

((لا، ليست مشيئة الله أن تضطرب النفس وتحزن من أي حادث، في هذه الدنيا. فهي ان حزنت واضطربت، وسط الاضطرابات، فما ذلك إلا لنقص في فضيلتها، لأن النفس الكاملة تفرح بما يحزن النفس الناقصة)).

أما نلاحظ في كتاب الصلاة أن الفواتح جميعها، حتى فاتحة الموتى، ومقدمات القداس جميعها، ومقدمة قداس الموتى عينها، تدعو الى الفرح والشكر! الابتسام حتى في الشدة، لأن أفضل ما نستخدم به أفضل الاشياء هو أن نضحي به على مذبح مشيئة الله.

ان حب الله يتغذى وينمو، ويعظم بكل ما تفقده الأنانية من حب التمتع الأدبي والمادي.

وكل عمل مهما كان، اذ تم بسلام وهدوء، بل بفرح ولذة، فإنه يفيد حتى الصحة نفسها، ويريح الروح وينعشها.

نعم، ان جميع الأشياء التي أعدت لتجديد قوانا (من أوقات راحة، وغذاء وتنزه) ليست بذاتها أنفع الأشياء لنا، بل هي كيفية سلوكنا الهادئ السعيد، حين تعاطيها، واستعدادنا الباطن لقبولها بسرور واطمئنان.

فيجب علينا، حباً لله، وحباً لمشيئته الحالية، أن نسر، ونفرح ونلذ بكل ما نصنع : ((افرحوا وابتهجوا بالرب)) (مز 36 : 4)، فنحقق بذلك رغبة القديس بولس : ((اذ تنمو في كل شيء)) (أفسس 4 : 15).

((اضحكوا، اضحكوا)) هذه كانت كلمات دوق نامور لأولاده، حين كان يراهم على شفا القلق واليأس، في موقف خطر، أو مجال صعب من تمارين الرياضة والفروسية.

فالضحك خير علاج جسدي وأدبي، واقياً ومقوياً.

وأشد ما نحتاج اليه في كثير من الأحوال إنما هو أن نضحك أو أن نغني.

واذا رمنا أن نتصرف بحسب الروح الفائق الطبيعة، كل حين، وبدون افتكار، فعلينا أن نبتسم لكل شيء.

لنضحك ونغن لكي نقنع نفسنا بتفاهة المصائب الصغيرة، والحوادث، والانزعاجات التي قد تحملنا على الاغتمام،

ولكي نحرك فينا، سريعاً، قوة المقاومة ضد حركات الطبيعة الأولى، أو حركات الأنانية وتجارب العدو المثيرة،

ولكي نوقف غارة الانفعال المؤيس، والجزع والسآمة، أو نمنع تقدمه استيلاءه علينا، ان كان قد تسلل الى روحنا.

لنضحك ونغن، لكي نلتزم أن نتصرف كأننا فرحون اذ ينبغي لنا أن نكون فرحين، ولاننا نريد أن نكون فرحين، ولأنه لا داعي الى أن نكون غير مسرورين.

ولا شك أن لا شيء مهم من جهة الإيمان سوى ما يخص الأمور الفائقة الطبيعة، لمجد الله وخلاص النفس، وما عداه فتافه وباطل.

أمر واحد ضروري : أن يكون الله ممجداً، وهو يتمجد، دائماً، في كل شيء، كيفما، كان، فإن لم يتمجد بطبيعته، تمجد بعدله : فلنهتف كل حين قائلين : هللويا!

أليس الله كلي السعادة. كليّ القداسة والجمال؟ أليس ناسوت المسيح في ملء المجد والسعادة الذي أهلته له آلامه؟ فلماذا أنت حزينة يا نفس؟

الرب قد قام! وهذا أساس فرحنا الحقيقي ((فمهما بلغ منى الكمد، فإني حين أنطرح أمام الهيكل، وأقول للرب يسوع : رب إنك كلي السعادة، لا ينقصك شيء، فحينئذ لن أتمالك أن أقول : وأنا أيضاً سعيد)) (الأب دي فوكو).

ونحن من حيث الإيمان، لا يهمنا إلا أمر واحد، وهو أو نضمن حياتنا، حياتنا الأبدية (نضمن ما يحفظها، ويزينها، ويزيدها، ويقويها، ويغنيها، ويكللها).

وليس للعمر غاية إلا أن يساعدنا على اكتساب هذه الحياة الأبدية، في حين أن كل شيء يساعدنا على اكتسابها :

فلنهتف اذًا كل حين، قائلين : هللويا!

وكل لحظة نفقد فيها السلام، ويحتجب عنا الابتسام وينطفئ نور الفرح، إنما كم هي لحظة ضائعة، لا أسدت مجداً لله ولا نفعاً لنفسنا.

لأن السلام، اذا غاب، والابتسام اذا احتجب، ونور الفرح اذا انطفأ، دلّ ذلك على أن الإيمان والرجاء والمحبة في هبوط وفي كسوف.

ولو كنا لا نطلب غير الله لضمنا رأس مالنا واسترحنا الى ربح قرضنا : ((اني عارف بمن آمنت))، فأعمالنا وتأليفنا مكتوبة في سجل الشرف من سفر الحياة.

ونحن إما معذبون أو غير مغذبين. فإذا كنا بغير عذاب، فلندع الأوتار تؤدي ما تشاء من أنغام الفرح، وان كنا معذبين، فلنرفع الخانة كما يفعل الموسيقي حينما يريد أن يغطي ما يسمع من الضوضاء.

رفع الخانة يعني اللجوء الى الإيمان والى العزم وفرح الإرادة. فإن في هذا الجهد أجراً عظيماً وفيه مسرة لله. فنقول اذ ذاك، أو نرتل بأعلى صوت ممكن : ((تعظم نفسي الرب))، و((إياك اللهم نمدح)) أو بعض آيات من المزامير، أو بعض الأناشيد الطقسية، أو النصوص الكتابية المشجعة مثل :

((بك يا رب اعتصمت، فلا أخزى الى الأبد)).

((صالحٌ هو الاعتراف للرب، والإشادة باسمك أيها العلي...

حياتي هي المسيح، وان مت فذلك ربح لي.. متى كنت ضعيفاً فحينئذ اكون قوياً ...))

((اني أفتخر بأمراضي، حتى تسكن قوة المسيح في)).

((نسجد لك أيها المسيح ونباركك، لأنك بصليبك المقدس فديت العالم)).

((يا امرأة لماذا تبكين؟ ...))، ((لماذا تكتئبين يا نفسي وتقلقين في... ارتجي الله، فإني سأعود أعترف له، وهو خلاص وجهي وإلهي)) (مز 42).

((الذين يتكلون على الرب هم كجبل صهيون غير المتزعزع الثابت الى الأبد)) (مز 124).

((أما الراجون للرب، فيتجددّون قوة، يرتقون بأجنحة كالنسور، يعدون ولا يعيون، يسيرون ولا يتعبون)) (اشعيا 40 : 31).

((أما أنا فأتهلل بالرب وأبتهج بإله خلاصي. الرب الاله قوتي، وهو يجعل قدمي كالأيائل، ويمشين على مشارفي)) (حبقوق 3 : 18).

فدخل الملاك، وسلم على طوبيا وقال : ليكن لك فرح دائم، (طوبيا 5 : 11).

اذا كنا لا نلتمس غير الله، ومشيئته وحضوره، فكيف نكتئب، ولا نكون دائماً فرحين، ونحن معه كل حين؟....

((لتبتهج قلوب ملتمسي الرب)) (أخبار الأيام الأول 16 : 10).

ان الله سعيد بذاته، ويسرّه أن نخدمه فيما نكون عليه من مختلف الأحوال، مرضية كانت أم غير مرضية... فماذا ينقصنا؟

ما أجمل حياة يخيم عليها السلام والفرح، وما أقدسها! تلك حياة ينعشها الحب والرزانة، وتدبرها الفطنة، وينظمها ويحييها جو سماوي، وليس لإبليس الماكر سلطان عليها.

ليس لمؤمن في حال النعمة إلا موقف واحد، وليس له إلا مسلك واحد : أن يكون في سلام وحدوء باطن وظاهر، ولا يليق بوجهه إلا مظهر واحد : مظهر البشاشة. لماذا نلجأ في كل وقت الى السلام والفرح؟ - لأن الرب قال : ((يكفي كل يوم همه)).

نعم، كل يوم ينتج ما يجب أن ينتجه من الأجر، ويؤدي كل ما ينتظر الله فيه من العزاء والفخر والمجد، ونحن لا بد لنا من أن نؤدي فيه مقداراً من الجهد والصبر، ونحتمل كل ما يرافقهما فيه من الكفر بالذات، وما يحقق كل ذلك غير السلام والفرح : أي الجهد الصحيح والصبر الطويل. ولا بدّ لنا، كل يوم، من اللجوء الى السلام والفرح.

الشريعة المسيحية الكبرى هي المحبة، محبة الله ومحبة القريب. وأوضح دليل على المحبة الصحيحة هو الفرح. واذ كان يهمنا، وحدنا، أن نكون راضين بمحبتنا، فعلينا أن نكون دائماً فرحين على الأرض كما في السماء. (نوع الفرح مختلف وأما المبدأ فواحد).

ولا يحق لمسيحي جدير بهذا الاسم أن يكون كئيباً بل أن يكون فرحاً (القديس أغناطيوس).

ان الله يجب المعطي المتهلل (2 كورنتس 9 : 8)، يجب أن نعطيه ما نعطيه، ونحن فرحون، لأن هذا الفرح يمجده ويسره. فإذا شئنا أن نستميله فلنظل دائماً فرحين في خدمته.

ولنمش مهللين حتى الموت (القديس يوحنا بركمنس).

اللهم إنك تملأ نفسي غبطة بكل ما تصنعه (القديسة تريزيا الطفل يسوع). (راجع المزمور 46، 5 و 116)، (والاقتداء بالمسيح كتاب 2 ف 3).

((امتلئوا من الروح القدس، متحاورين فيما بينكم بمزامير وتسابيح وأغاني روحية، ومرنمين، ومرتلين في قلوبكم للرب، وشاكرين كل حين كل شيء، باسم ربنا يسوع المسيح لله الآب)) (أفسس 5).

((ان ما ينبغي أن نطلبه من الله إنما هو الفرح. فنحن في أمس الحاجة اليه، لكي نتقدم دائماً، ولا شك أننا نلاقي في طريقنا مصاعب كثيرة، وأننا لا نسير دائماً في أرض سهلة، ممهدة، غير أنه لا شيء يقدر أن يحزن او يحق له أن يحزن نفساً تخصصت

بالله... لا المرض، ولا الفشل، ولا الاحتقار، ولا التجارب نفسها)) (الأب جينهاك، حياته 356).

خاتمة

((ما أسعد الناس، حين يشغل حياتهم حلم جميل، فإنهم يصلون الليل بالنهار، مجاهدة في سبيل تحقيقه!))

فعلينا ان نسعى وراء حلم جميل، وراء مثال أعلى لا يستطيع أحد أن يوقفنا، دون تحقيقه والبلوغ اليه.

أما حلمنا، فهو أن تصبح حياتنا كلها محبة.. فنكون ذوي نفوس كبيرة وجميلة كنفس يسوع المسيح، ونحيا متحدين به، لمجد الله وتعزيته، في الحياة الحاضرة وفي الأبدية.

نفس كبيرة وجميلة، ذلك عمل الأعمال جميعها، العمل المؤكد تحقيقه، العمل غير المحدود، الذي هو أبقى الأعمال، وأكبرها عزاء، وجزاء، وأكثرها تفريحاً وتشريفاً، لا شيء يوقفه، بل كل شيء يعاونه، حتى المصاعب والمعاكسات نفسها، وهو خير الأعمال عاقبة، لأنه يلتمس قلب الله. وسبيله إنما هو كبر النفس وجمالها.

إننا نعمل وننجح، ما دمنا في سلام وفرح، لأن السلام والفرح يمثلان، وحدهما، أسمى فلسفة واعلى نظام، ولأن السلام والفرح الدائمين يدلان على ان في الروح وفي القلب مبادئ سامية واستعدادات رفيعة.

وما تلك المبادئ إلا مبادئ الإيمان،

ولا تلك الاستعدادات إلا ما نبع من أنقى المصادر الفائقة الطبيعة.

الفرح الدائم هو ممارسة دائمة للإيمان الحي وللثقة البنوية، والحب السخي الخالص، و إلا فلا يكون الفرح ممكناً... على أنه بالإيمان يصبح طبيعياً، لأن الغلبة للإيمان (عبرانيين ف، 11 : 3 – 31).

((الغلبة التي نغلب بها العالم هي إيماننا)) (1 يو 5 : 4).